الأستاذ محمد عز الدين توفيق

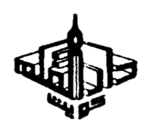
كيف تختار الكتاب الإسلامي وتقرؤه

الطبعة الثالثة للكتاب
الطبعة الأولى للناشر
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ملتزم التوزيع



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ ش القصر العيني - الدور الثاني/شقة ٤
تليفون وفاكس : ٣٥٥١١٠٥
ص.ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

مقدمة الطبعة الثانية

عندما صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م كان القصد منه طرح بعض الملاحظات المنهجية، والاقتراحات العملية المتصلة بكيفية التعامل مع الكتاب الاسلامي.

وعندما اخترت للكتاب عنوانه، لم أكن أقصد أنه بحجمه الصغير سيزود القارئ بكل ما يحتاج إليه ليحسن اختيار الكتاب الاسلامي ويحسن قراءته، فهذا أمر لايمكن أن ينهض به كتاب واحد، ولذلك فاني اعترف سلفا أن الكتاب لايحيط بعنوانه، لكنه يساهم في تجلية بعض جوانبه.

ان من مشاكل الطلاب وشباب الصحوة الاسلامية عامة هو كيفية التعامل مع الكتب اختيارا ومطالعة، وقد واجهت بنفسي هذا المشكل، كما تلقيت أسئلة كثيرة تتعلق به، ولم يتسع الوقت لتأليف بحث مطول في الموضوع، فأعددت هذه الرسالة اكدت فيها على جانب الكيف عند القراءة والمطالعة، وذكرت مجموعة من الملاحظات المنهجية وبعض الاقتراحات العملية، ولم أكرر ما ذكرته كتب أخرى متوفرة، فأحلت عليها في موضوعاتها. وإني لارجو أن يتقدم من هو أكثر مني اطلاعا على المكتبة الاسلامية، وأعرف مني بالطرق المنهجية في القراءة للكتابة في هذا الموضوع الواسع حتى يكون عنوان هذه الرسالة اسما لسلسلة من الكتب حول الموضوع.

وإني إذ أقدم للقراء هذه الطبعة الثانية أشكر كل الذين أبدوا ملاحظاتهم حول الكتاب جزاهم الله خيرا، فقد استفدت منها في بعض التنقيحات التي أضفتها في هذه الطبعة.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا العلم النافع ويثمر هذا العلم في حياتنا العمل الصالح. إنه سميع مجيب.

الدار البيضاء في فاتح ربيع الأول ١٤١٤هـ

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . وبعد :

لما كانت غاية الوجود الانساني في الأرض هي عبادة الله تعالى ، فقد بعث الله إليهم الرسل ، وأنزل إليهم الكتب ، ليؤدوا حق العبادة على علم .

ولما كان العلم شيئا يكتسب ، ولايولد مع الانسان ، فإن من البديهي ان يكون العلم بالله تعالى ، والعلم بالطريق الموصل إليه مما يجب تحصيله وتعلمه.

والناظر في واقع المسلمين الثقافي يهوله ما يراه من الاضطراب الشديد في ثقافتهم الاسلامية ، هذا الاضطراب الذي ألحق الضرر البالغ بعلاقتهم مع دينهم ، فقد لعبت مخططات التجهيل الاستعمارية دورها الهدام ، وأثمرت تلك المؤامرات المبيتة ثمارها الخبيثة ، تجلت في هذا الجيل المسلم الذي نشأ على الجهل بالاسلام ، فتركه وراءه ظهريا ، دون أن يكلف نفسه من الجهد ما يجعله يعرف مقاصده ومزاياه ، ويتفقه في أحكامه وتعاليمه .

لقد سار ابتعاد المسلمين عن دينهم في اتجاهات ثلاثة : الأول نحو الشرك ، والثاني نحو البدع ، والثالث نحو المعاصي ، ففي الاعتقاد شاعت مظاهر الشرك ، وفي العبادات كثرت البدع ، وفي الحياة العامة انتشرت المعاصي ، وإذا كانت أسباب هذا الانحراف الثلاثي الأبعاد متعددة ، إلا أن أهمها ولاشك هو الجهل بأحكام الاسلام وتعاليمه ، وافتقاد العلم الذي يفرق به

المرء بين التوحيد والشرك ، والسنة والبدعة ، والطاعة والمعصية ، والمعروف والمنكر ، والحلال والحرام .

لقد اجتهد الشيطان في اطفاء مصابيح العلم بين المسلمين ، فلما تحقق له ذلك تمكن منهم في الظلام غاية التمكن .

ولقد تحول هذا الجهل عند طائفة من المسلمين إلى جهل مركب ، عندما سبق إلى أفهامهم أن ما تلقوه من شذرات عن الاسلام يكفيهم مدى الحياة ، وأن ما تعلموه هنا وهناك هو الاسلام .

وكل من له صلة بأبحاث العلماء التي بينوا فيها القدر الضروري من العلم ، يدرك أن هذا وهم عريض ، وخطأ فاحش ، بل إنه كلما تقدمت معرفة المسلم بالاسلام تبين له أنه في البدايات ، وانكشفت له في هذا البناء الشامخ مساحات من المجهول الذي لا يعرفه ، ومن أحسن ما كان يقول الامام ابن تيمية إذا أثنى عليه أحد بالعلم وغيره : والله ما مني شيء ، ولا في شيء ، والله إني إلى الآن أجدد إسلامي ، ولم أسلم بعد إسلاما جيدا .

ولقد أصبح لزاما على كل مسلم نذر نفسه لإنقاذ الامة من الجهل الذي تردت فيه ، وانتسب للدعوة الاسلامية والعمل الاسلامي ، أن يبدأ بنفسه فيزيل عنها الجهل بالاسلام ، ليستطيع القيام بدوره على أكمل الوجوه ، ولا يكون من الرؤساء الجهال الذين يفتون بغير علم فيضلون ويضلون :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس ، بعد أن يؤتيهم إياه ، ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا ، إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لاينتزع العلم انتزاعا من الناس ، بعد أن يؤتيهم إياه ، ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا ، إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ، ويضلون »[1] .

وليس هناك طريق يبلغ به المسلم هذا الهدف الكبير ، إلا أن يعرف فرض العين وفرض الكفاية من علوم الاسلام ، ثم يأخذ نفسه ببرنامج دقيق ينظم به مسيرته بين هذه العلوم . لابد من هذه الخطوة ليعود للعلوم الاسلامية الاهتمام اللائق بها ، بعد أن اصبح اهمالها ظاهرة فردية واجتماعية ، فعلى الصعيد الفردي اصبح تحصيل المال وكسب المعاش اهم لدى المسلمين من تحصيل العلم ، بل أصبح العلم يطلب لأجل المال ، ويؤخذ منه بقدر ما يحقق لصاحبه من متاع الدنيا ، وعلى الصعيد الاجتماعي اصبح التقدير للعلوم الدنيوية المادية هو الغالب ، والتنافس على التخصص فيها هو السائد بين الطلاب والاسر تقليدا للمسلك الغربي في ذلك. ولقد سارت بلاد الغرب أشواطا بعيدة في تحصيل العلوم المادية ، لكنها لم تستطع أن تبني بهذه العلوم سوى مدنية صناعية ، ولم تشيد بها حضارة إنسانية قائمة على رسالة إلهية تعرف بالانسان ، وتحدد موقعه في الكون وغايته فيه .

والاسلام لا يرضى أن تؤسس أمته مدنية بدون حضارة ، ولذلك لا يوافق على النموذج الغربي السائد حاليا موافقة كاملة وفي جميع المجالات ، غير أن المسلمين فشلوا إلى الآن في الارتفاع إلى هذه الغاية التي أراد الاسلام أن يرفعهم إليها ، فهم لم يحسنوا بعد اسلوب التعامل مع علوم الغرب فانتقلت إليهم خليطا قد امتزج خيره بشره ، ونفعه بإثمه ، ولم يوظفوا هذا الاقتباس

لبناء الحضارة الانسانية التي ينشدها العالم ، ويتآخى في ظلها العلم والإيمان، وتلتقي بها السيادة في الكون مع العبودية لله وحده .

إن التفوق في العلوم المادية مما يعلو به المسلمون ، لكن الاسلام يريد من أمته أن تجعل ذلك التفوق وذلك العلو في خدمة الرسالة التي بها كانت خير أمة أخرجت للناس .

ومن هنا تأتي أهمية العلوم الشرعية ، أو علوم الكتاب والسنة ، فهي في الوقت الذي تقوم بترشيد مسار العلوم المادية لتصير هي الأخرى علوما شرعية أسلامية ، وتتجه نحو خير الانسان ، تقوم بربط الانسان إلى غاية تجعله مستخلفا في الارض يحمل فيها عهدا وأمانة : إنا عرضنا الامانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان ، إنه كان ظلوما جهولا " (الأحزاب/ آية ٧٢)

ولو فهم المسلمون حاجة البشرية إلى العلم الالهي الذي عندهم ما بهتت في نفوسهم صورة العلوم التي قامت حول الكتاب والسنة ولكانت مقدمة على غيرها في مؤسساتهم التعليمية والجامعية .

إن من أهداف الاسلام الكبرى ، أن يكون مجتمع المسلمين مجتمع علماء كل شيء فيه يسير بعلم ، فلا يكون أفراده علماء وجهلة ، ولكن يكون فيه العالم وأعلم منه .

ولهذا فإن الأمة الاسلامية الآن بحاجة ، قبل حاجتها إلى العلوم المادية إلى أمرين مهمين اولهما أن يكون مع كل مسلم نصيبه الضروري من العلم بالاسلام وهو القدر الذي به يصير مسلما .

وثانيهما - أن تتميز من بين هؤلاء نخبة تزيد من علمها عن هذا الحد المفروض ، لتصير مراجع للأمة في دينها ، وتتولى توصيل القدر المفروض من

العلم بالاسلام إلى مختلف فئاتها.

ولست بهذا الكلام أنتقص من أهمية العلوم المادية وحاجتنا إليها ، ولكن التجربة الواسعة في مختلف البلاد الاسلامية أثبتت أن التخصص في هذه العلوم ليس هو الذي يخرج لنا المسلم في هذه التخصصات ، بل العلوم الشرعية أو علوم الكتاب والسنة هي التي تخرج لنا ممن تلقى العلوم المادية ، الطبيب المسلم ، والمهندس المسلم ، والصانع المسلم ، والمحامي المسلم ، والمسؤول المسلم في أي اختصاص .

إن طلب العلوم الشرعية لاينبغي أن يكون تخصصا دراسيا لفئة من الطلاب ، وإذا كان التخصص فيها ضروريا في مرحلة دراسية معينة ، فينبغي أن تعمم مرحلة أساسية على جميع التخصصات فيسير التفقه في الدين جنبا إلى جنب مع التفقه في علوم الدنيا ، وإذا كانت المناهج الدراسية السائدة الآن لاتحقق هذا بالشكل المطلوب ، فإن أي طالب مسلم ادرك هذه الثغرة في المناهج الدراسية الحالية مدعو إلى مواكبة دراسته النظامية بدراسة إسلامية موازية .

إن الاسلام بحمد الله لايخاف عليه من هذه العلوم المادية ، كما لا يخاف على هذه العلوم من الاسلام ، بل إن الخشية التي جعلها عز وجل طريق رضاه وحصرها في العلم لاتكون على أتمها إلا عند من قرأ كتاب الكون وكتاب القرآن واصاب من كلا العلمين قال الله تعالى : « الم تر ان الله انزل من السماء ماء ، فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض ، وحُمْر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر الآية ٢٨).

وقال سبحانه :

«رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه» (البينة/آية ٨)

فقوله عز وجل : « الم تر ان الله انزل من السماء ماء » ، إشارة إلى آيات الله في إنزال المطر وهو ما يبحثه علم الأرصاد وعلم الفلك ، وقوله سبحانه « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » ، إشارة إلى آيات الله في إنبات النبات وإثماره ، وهو ما تبحثه علوم الزراعة ، وقوله تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود » اشارة إلى آيات الله في الجبال ، وهو ما تدرسه علوم الجيولوجيا والجغرافيا وقوله تعالى : « ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك » اشارة إلى آيات الله في عالم الحيوان والانسان ، وهو ما تبحثه العلوم البيولوجية والانسانية والاجتماعية ، فتضمنت هذه الآية الكريمة الاشارة إلى آيات الآفاق والانفس وهي موضوع العلوم البشرية كلها طبيعية وانسانية ، وفي ذات الوقت تضمنت الأمر بالتفكر في هذه الآيات لأجل الاعتبار والإيمان وهذه مهمة الوحي وما قام حوله من علوم شرعية دينية ، فليس علماء الكون أولى بهذه الآية من علماء الشرع ، وليس علماء الشرع أولى بها من علماء الكون ، ولكنها تشمل كل عالم نظر في آيات الكون والنفس فقاده نظره إلى الفهم والتسخير ثم إلى الاعتبار والإيمان فجمع في علمه بين شطري الخلافة الانسانية على الأرض .

إذا وضح لنا أن العلوم الشرعية الدينية هي أساس الانتفاع الصحيح بالعلوم الشرعية الدنيوية ، فإن الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية ، وأقوال السلف التي جاءت في فضل العلم والتعلم والتعليم ، إنما تقصد الأولى بالأصل وتقصد الثانية بالتبع ، وفي الفصل الأول سنذكر طرفا مما ورد في فضل العلم ومنزلته في الإسلام ، بينما سنتحدث في الفصل الثاني عن معنى العلم بالدين، وأما في الفصل الثالث فسنذكر مجموعة من الملاحظات المنهجية المتعلقة

بالتحصيل ، وفي الفصل الرابع جملة من المقترحات العملية حول إعداد قوائم الكتب، ووضع برامج القراءة ، وفي الفصل الخامس تصحيح لبعض المفاهيم في مجال تحصيل العلم ، وأما الخاتمة ففيها تذكير ببعض مواقف القدوة لدى سلفنا الصالح في حرصهم على العلم وتعظيمهم لأهله ، وإخلاصهم في طلبه ، وصبرهم على تحمله وأدائه .

الفصل الأول

فضل العلم ومنزلته في الاسلام

لايتسع المجال لبسط الشواهد القولية من الكتاب والسنة ، والمواقف العملية ومن السيرة والتاريخ عن فضل العلم ومنزلته في الاسلام ، فنكتفي بأمثلة قليلة تمثل غيرها فنقول (1)

١- لقد خاطب الحق عز وجل نبيه فقال :

« وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » (النساء/آية ١١٣) .

فالاسلام بعقائده وشرائعه علم عظيم النفع للناس كافة ، بل هو العلم النافع بكل اعتبار ، وإذا كان فضل الله على نبيه بهذا العلم فضلا عظيما ، فكل من أخذ منه بنصيب فإن فضل الله عليه عظيم ، وبهذا المعنى كان العلماء ورثة الانبياء ، ورثوا عنهم العلم .

٢ - وقال عز وجل في شهادة عظيمة لأهل العلم :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » (فاطر/آية ٢٨).

فقد حصرت الآية الخشية في أهل العلم ، فعُلِم فضل العلم بذلك ، فتكون المعرفة بالآيات طريقا إلى العلم بالاسماء والصفات ويكون العلم بالأسماء والصفات طريقا إلى الخشية ، والخشية طريق الرضى ، والرضى أعظم ما في الجنة .

٣ - وجعل سبحانه العلم منحة إلهية منه ، من أوتيه فقد أوتي خيرا كثيرا (البقرة/آية ٢٦٩) .

« والحكمة مصدر من الإحكام ، وهو الاتقان في قول أو فعل ، وكل ما ذكر المفسرون في معنى الحكمة فهو نوع منها ، فكتاب الله حكمة ، وسنة نبيه حكمة .... وأصل الحكمة ما يمنع من السفه ، فقيل للعلم حكمة لأنه يمنع من السفه وكل فعل قبيح » (٢)

إن معنى الحكمة أن يكون الانسان مسددا في قوله وفعله ، في حكمه وقضائه ، يمشي في الناس بنور الله ، فتقع أعماله موافقة للحق والصواب ، وهذه مرتبة عظيمة لاتنال إلا بالعلم، ولذلك أمر سبحانه نبيه أن يستزيد منه فقال : « وقل ربي زدني علما » (طه/الآية ١١٤).

٤- وسمى عز وجل طلب العلم نفيرا كنفير الجهاد :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (التوبة/آية ٢٢).

فقد أمر سبحانه المؤمنين ألا ينفروا للجهاد جميعا ، بل تنفر فرقة لطلب العلم ، وتنفر فرقة للجهاد ، فإذا عادت الفرقتان علمت كل منهما الأخرى العلم الذي حصلته في نفيرها .

وهذا شرف عظيم لطلاب العلم ، فإن الجهاد ذروة سنام الاسلام وتسمية عملهم جهادا هو باعتبار الجهد الذي يبذله طالب العلم أثناء الطلب ، وباعتبار الغاية التي ينشدها وهي اعلاء كلمة الله ونشر الاسلام في الناس ، والجهاد في سبيله بالحجة والبيان .

وأما فضل العلم في السنة النبوية فالامثلة كثيرة ، نذكر منها :

١- عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» (٣)

ومفهومه أن من لم يرد به خيرا لم يفقهه فيه ، ولذلك فإن محبة العلم وميل الطبع إليه منذ الصغر إلهام من الله تعالى وهداية منه ، فإذا نبغ المرء في العلم وكان مع العلم صلاح واستقامة فتلك علامة أن الله أراد به خيرا ، أراد به خيرا لنفسه وخيرا للمسلمين .

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « .... ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » (٤)

فهذا الحديث جعل كل سبيل يسلكه المسلم لطلب العلم طريقا إلى الجنة، ففتح الحديث أبواب الجنة لطالب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع ، ولم يحصر الحديث هذا الفضل في طريق واحد ، بل جعله فضلا مبذولا لكل من سلك طريقا من طرق العلم ، قراءة أو حفظا أو مشافهة أو مذاكرة وتدبرا أو غير ذلك .

٣ - وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » (٥)

فهذا الحديث ذكر الفقه في الدين ، وعده مقياسا للمفاضلة بين الناس إذا تساووا في بقية الصفات .

٤ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (٦)

ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ، وأسعد الناس بجوار الانبياء يوم القيامة أعلمهم بهديهم وخلقهم وسيرتهم وأتبعهم لها .

وأما من أقوال الصحابة رضي الله عنهم ، فنسوق مقالة جامعة (لأعلم الامة بالحلال والحرام ، وأعرفها بقيمة العلم ، معاذ بن جبل رضي الله عنه ، يقول :

« تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، بل يعرف الله ويعبد ، وبه يوحد ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل في السراء ، والمعين على الضراء والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم ، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها .

« والعلم حياة للقلوب من العمى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الابرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء (٧)

وكان السلف يحقرون من لا يحمل شيئا من علم النبوة ، كائنا من كان ، قيل لعبد الله بن المبارك : مَن الناسُ ؟ قال : العلماء ، قالوا : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة؟ قال : الذي يأكل بدينه (٨)

كما كانوا يزنون أيامهم بما خلفت من علم أو عمل ، كما قال أحدهم: إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله ، فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم ، وكما قال غيره شعرا :

إذا مر بي يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما ذاك من عمري

وقد صرح العلماء المقتدى بهم ، أن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم .

قال ابن القيم بعد أن نقل أقوال الأئمة في ذلك وذكر عن الامام أحمد ثلاث روايات إحداهن أنه العلم والثاني الصلاة والثالث الجهاد :

« وقال شيخنا - يقصد ابن تيمية - وهذه الأمور الثلاثة التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهي الصلاة والعلم والجهاد ، هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها : لولا أن احمل أو أجهز جيشا في سبيل الله ، ولولا مكابدة هذا الليل ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر ، لما أحببت البقاء ، فالأول الجهاد ، والثاني قيام الليل ، والثالث مذاكرة العلم ، فاجتمعت في الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم » (٩)

وقد قدموا العلم على الطعام والشراب ، كما قال الامام أحمد :

« الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الانفاس (١٠)

وقال ابن وهب :

« كنت بين يدي مالك بن انس ، فوضعت ألواحي ، وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذي قمت إليه بافضل من الذي تركته » (١١) يعني اذا صحت فيه النية .

واقوال العلماء تفيد أن العلم قبل العمل ، فالذي يعمل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح ، فيكون فرض العلم قبل فرض العمل ، ونفل العلم قبل نفل العمل .

ولا يعلم فضل العلم احد ، ويكون ذا عقل فيعدل به شيئا آخر :

« قال ابو جعفر الطحاوي : كنت عند احمد بن ابي عمران فمر بنا رجل من بني الدنيا فنظرت إليه ، وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لي : كأني بك قد فكرت فيما اعطي هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة ، هل لك أن يحول الله اليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش انت غنيا جاهلا ، ويعيش هو عالما فقيرا فقلت ما اختار ان يحول الله ما عندي من العلم إلى ما عنده ، فالعلم غنى بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال » (١٢)

وقد كثر في الشعر الاسلامي الوصية بطلب العلم والحث عليه ، قال ابو عبد الله الكلاعي الاندلسي :

ألا فاعلم فإن العلم فرض ... وجملته فريضة عالمينا
متى ما لم تكن من حامليه ... تكثر من سواد الجاهلينا
وقيمة من ترى في الأرض يمشي ... بقدر دخوله في العالمينا
ومن يك جاهلا همجا رعاعا ... فليس له سوى اسم الآدمينا

الفصل الثاني

ماذا يعني العلم بالدين ؟

إذا كان الاسلام بعقائده واخلاقه وآدابه وعباداته ومعاملاته هو الشرح المفصل للعهد الذي بين الله وبين عباده ، فإن العلم به يعني العلم بشروط هذا العهد ونواقضه .

إن العلم بالاسلام معناه العلم بغاية الحياة ، والعلم بأحكام الاستخلاف فيها ، والعلم بأسباب النجاة والفلاح بعدها .

والاسلام ليس كلمة يقولها المرء بلسانه ، ولكنها صبغة إلهية تصطبغ بها حياته الفردية والاسرية والاجتماعية ، فكيف السبيل لمعرفة هذا الاسلام ؟

والجواب أن لأحكام الاسلام مصدرين اثنين من اراد أن يعرف الاسلام لزمه التفقه فيهما ، ففيهما توجد احكامه نصا أو استنباطا .

العلم بالدين ينحصر في العلم بكتاب الله ، والعلم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أولا - العلم بكتاب الله :

« وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (فصلت/آية ٤٢) .

للقرآن الكريم خمسة حقوق ، على قدر أداء المسلم لها تتحدد درجته في العلم بكتاب الله :

فأولها - أن يتلوه فلا يهجره ، فقد علم سبحانه ما يعرض للإنسان

من الشواغل الصارفة له عن تلاوة القرآن ، ومع ذلك لم يرخص له في ترك قراءته، بل أمره بقراءة ما تيسر منه ، قال عز وجل :

« فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه » (المزمل / آية ٢٠) .

الثاني – أن يتدبره ، ويفهم معانيه على وجهها الصحيح ، فإن قراءة القرآن وإن كانت عبادة ، لكنها ليست لذاتها ، بل المقصود بها الفهم والتدبر ، وهذا واضح من آيات القرآن نفسها مثل قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن» (النساء/آية ٨٢) .

وهذا التدبر والفهم هو المقصود بتعلم القرآن الذي ورد الأمر به في الحديث ، كقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وغيره عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » [١٣] فتعلم القرآن يشمل تعلم حروفه وكلماته ، ويشمل أيضا وهذا أهم تعلم معانيه وأحكامه .

الثالث – أن يعمل بما تحته عمل من أوامره ونواهيه ، فإن القصد من التلاوة الفهم والتدبر ، والقصد من الفهم والتدبر العمل والتنفيذ ، وهذا الحق الثالث اظهر من أن يستدل عليه قال الله تعالى « فاستمسك بالذي اوحي اليك » (الزخرف/آية ٤٣) ، وقال سبحانه : « قل انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء ، وامرت ان اكون من المسلمين ، وان اتلو القرآن» (النمل/آية ٩١) ، فالتلاوة هنا شاملة للقراءة والمتابعة بل تفسيرها بالاتباع أولى من تلا الشيء إذا اتبعه وهو أصل الكلمة في اللغة ، فتكون القراءة الحقة هي المقرونة بالاتباع .

الرابع – أن يبلغه ويبلغ الهدى الذي جاء به ، فقد وصف الله عز وجل

هذا القرآن بأنه هدى وبينات وفرقان قال تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (البقرة/آية ١٨٥) ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الامة أن تبلغه عنه ليبلغ هذاء العالمين فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، ولا يبقى في الناس ضحايا أبرياء يذهبون ضحية الجهل بالحق الذي جاء من عند الله .

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« بلغوا عني ولو آية ». (١٤)

الخامس – أن يحفظ ما تيسر له حفظه منه ، كله أو بعضه ، فإن خير ما تحمله الصدور كلام العليم الخبير ، وقد يسر الله كتابه للحفظ ، مما لم يتفق لكتاب آخر غيره ، ولذلك كان حفظة القرآن الكريم في كل جيل من أجيال الاسلام مئات الآلاف ، أما من يحفظ بعضه فأكثر من ذلك ، ومن النادر جدا أن تجد المسلم الذي لا يحفظ شيئا من القرآن ، وفي هذه الحالة يكون كما جاء في الحديث : « الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » (١٥)

إذا كانت هذه هي حقوق القرآن الكريم ، ولا يكون المسلم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته إلا بأدائها ، فإن أي علم يعين على أدائها علم مطلوب ، ومكانته تحدد بحسب ما يعين به دارسه في حسن التلاوة ، أو حسن الفهم ، أو حسن العمل ، أو حسن الدعوة ، أو حسن الحفظ .

وتبرز هنا ثلاثة أنواع رئيسية من العلوم الاسلامية :

الاول – علوم اللغة العربية .

الثاني – علوم التجويد والقراءات .

الثالث – علوم التفسير وأحكام القرآن .

ثانيـا - العلم بسنة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم :

« والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » (النجم/آية ١-٤) .

والسنة هي المصدر الثاني للاسلام ، وهي كما صرحت الآية السابقة كالقرآن وحي معصوم من ضلال الشبهات ، وغواية الشهوات ، فقد أوتي صلى الله عليه وسلم القرآن ومثله معه ، وعصمه الله من الشيطان فيما بلغ عن ربه ، فلا يلبس عليه فيما يراه ويسمعه من أمور الغيب ، ولا فيما يقوله ويفعله من أمور الشرع .

وقد أدرك علماء الاسلام رحمهم الله في وقت مبكر ، أن كلام النبوة قد يضيع أو يختلط بغيره ، فهبوا لجمعها ، وتمييز الصحيح والضعيف منها ، في أروع عملية توثيق شهدها التاريخ الانساني كله ، وكان حفظها من حفظ القرآن تصديقا لوعد الله القائل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (الحجر/آية ٩) .

فما هي حقوق السنة النبوية ؟ وما هي العلوم التي تعين على أداء هذه الحقوق ؟

وحقوق السنة هي حقوق القرآن ، ونجملها فيما يلي :

الأول - أن يطلع عليها في دواوينها ، خاصة ما يحتاج إليه في تدينه اليومي ، فإنه لا يتصور اسلام بدون سنة ، وكيف يتصور بدونها وقد فصلت أحكاما كثيرة جاءت مجملة في القرآن الكريم ، بل واستقلت بأحكام كثيرة لم تذكر فيه .

الثاني - أن يجتهد في فهم ما اطلع عليه منها ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان أفصح من نطق بلغة العرب وأوتي جوامع الكلم ، وقصد في كلامه إلى الايضاح والتبيين ، إلا أن ابتعاد اللسان الدارج عن اللسان العربي الاول ، قد استدعى البحث في معاني الالفاظ النبوية وتطبيق القواعد المنهجية في شرح معاني الاحاديث ، حتى يكون الفهم لها سليما ، ومعلوم أن حسن الفهم هو الطريق إلى حسن العمل والتطبيق .

الثالث - أن يعمل بما علمه منها ، ولا خيار في ذلك ، فقد زكى الله عز وجل سنة نبيه وسيرته ، ولم يستثن منها شيئا ، فقال عز وجل : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (الأحزاب/آية ٢١) .

وما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة يحمل في معظمه معاني الامر والنهي ، إما في خطاب مباشر أو غير مباشر وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم فإنما اهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» (١٦)

الرابع - أن يدعو غيره إلى ما علم منها رجاء أن يكون من أهل الحديث الذي طلبوه وعملوا به وأدوه ويلغوه أو ينسب إليهم ويلحق بهم فقد حمل النبي صلى الله عليه وسلم الامة أمانة البلاغ ، فقال في أكثر من مناسبة : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ، وحفظها ، وبلغها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (١٧)

والأداء أو التبليغ كما يكون بالقول يكون بالعمل أيضا ، فيتمسك بما

علم من السنة ، ليراه الناس فيأخذو عنه ذلك ويكون قد سمع مقالة النبي صلى الله عليه وسلم فوعاها وأداها بالقول والعمل ، أو بالكلمة والقدوة .

الخامس – أن يحفظ ما استطاع حفظه منها ، وأهم فوائد الحفظ أن الحديث يكون حاضرا بلفظه في الذهن ، وهذا أدعى إلى الدقة في الاستشهاد به والعمل بمضمونه ، وتبليغه للناس بلا تحريف .

وقد جمع علماؤنا رحمهم الله الاحاديث النبوية ، في كتب متفاوتة الاحجام ، والمسلم يأخذ منها بحسب طاقته وظروفه ، فمن لم يجد وقتا لحفظ القدر الكثير ، اقتصر على القليل ، ولا يبقى صدره خاليا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه هي حقوق السنة ، واداؤها يحدد لكل مسلم درجة رسوخه في العلم بها .

وأي علم يعين على أداء هذه الحقوق علم مطلوب ، ويبرز من هذه العلوم علمان أساسيان : علم الحديث وعلم الفقه .

فعلم الحديث عني بجمع الاحاديث النبوية وتدوينها ، وتمييز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، عن طريق التعريف بالرواة وأحوالهم ، وضبط ألفاظ الأحاديث ، وشرح معانيها والإجابة عن مشكلها ، ولكل ذلك علوم فرعية ، بعضها تولى دراسة الاسناد والاخرى دراسة المتن .

وعلم الفقه عني باستخراج الأحكام العملية من ادلتها في القرآن والسنة بعد أن قام علم الحديث بتوثيقها لتكون صالحة لاخذ الاحكام ، والتعبد بها . ولقد كثرت وصايا العلماء بتحصيل علم الحديث وعلم الفقه ، قال الأعمش : « إني لأرى الشيخ لا يروي شيئا من الحديث فاشتهي أن ألطمه » (١٨) .

ونقول : كم عدد المسلمين اليوم الذين يستحقون لطمة الأعمش عليه

رحمة الله ؟

إن أغلب المسلمين ضيعوا أنفسهم وضيعوا الاسلام ، قال المزني كان الشافعي رحمه الله ، إذا رأى شيخا سأله عن الحديث والفقه فإن كان معه شيء، وإلا قال له : لاجزاك الله خيرا عن نفسك ولاعن الاسلام ، قد ضيعت نفسك ، وضيعت الاسلام . (١٩)

ونقول : كم عدد المسلمين اليوم الذين يحتاجون الى سماع كلمات الشافعي رحمه الله ؟ لعلها تنهض بعزائمهم لدراسة سنة نبيهم ، فانهم لو خصصوا جزءا من الوقت الذي ينفقونه في التعرف على أخبار الفن والرياضة ونحو ذلك ، للتعرف على السنة لعرفوا منها الكثير الطيب .

لقد كانت دراسة علوم الكتاب وعلوم السنة تتم بشكل مترابط لتداخل علومهما واتصال بعضها ببعض ، وتراجم العلماء في كتب التراجم تنم عن هذا الاتصال بين العلمين ، وكان الميزان الذي يوزن به العالم ، أن ينظر ما معه من ميراث النبوة قرآنا وحديثا ، فإذا لم يكن معه شيء منه فهو لا أحد ، يروى أن أحد خلفاء بني العباس كان يلعب بالشطرنج ، فاستأذن عليه أحد الناس ، فأذن له ، وغطى الرقعة ، فلما جلس الداخل قال له الأمير ياعم : هل قرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : هل كتبت الحديث ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت في العربية وأيام الناس ؟ قال : لا ، فقال الخليفة

لجليسه: اكشف الرقعة ، وهيا نتم اللعب ، وزال احتشامه منه ، فقال له ملاعبه : يا امير المومنين نكشفها ومعنا من نحتشم منه ؟ قال : اسكت فما معنا احد . (٢٠)

الفصل الثالث

ملاحظات منهجية

الآن وقد فرغنا من بيان أهمية العلم ومنزلته في الاسلام ، ومعنى العلم بالدين ، نذكر مجموعة من الملاحظات النظرية التي ينبغي أن يستحضرها طالب العلم باستمرار تنهيجا لعقله عندما تتولى المقترحات العملية في الفصل القادم تنهيج ممارسته .

الملاحظة الأولى : أساس العلم نبذ التقليد :

لايمكن لمن قيد نفسه بتقليد ما ، أن يزيد في علمه خطوة ، ويتصور التقليد في المذاهب الكلامية والفقهية والصوفية وغيرها ، فالذي يسبق إلى عقله تقديس شيء منها والجمود عليه يحرم نفسه من علم كثير ، ويفسد على نفسه الصورة الصحيحة لما حصل منه ، كالذي يلبس نظارة ملونة ، فإن كل شيء يراه ، لايراه إلا ملونا بلون هذه النظارة التي وضع على عينيه .

والمنهج السليم أثناء الطلب هو أن يدرب طالب العلم عقله على التماس الدليل ، قبل أن يقبل أو يرفض جزئية من جزئيات علم معين ، ويجب أن يكون هذا الموقف حاضرا بشكل عفوي ، وهو يتلقى مختلف المعارف والعلوم .

وعن هذه الملاحظة يقول الامام الشوكاني : (٢١)

« إني لما أردت الشروع في طلب العلم ، ولم أكن إذ ذاك قد عرفت شيئا منه حتى ما يتعلق بالطهارة والصلاة ، إلا مجرد ما يتلقاه الصغير من تعليم الكبير لكيفية الصلاة والطهارة ونحوهما ، فكان أول بحث طالعته هو

بحث كون الفرجين من أعضاء الوضوء في الأزهار وشرحه لأن الشيخ الذي أردت القراءة عليه والأخذ عنه كان قد بلغ في تدريس تلامذته إلى هذا البحث ، فلما طالعت هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ ورأيت اختلاف الاقوال فيه سألت والدي رحمه الله عن تلك الاقوال أيها يكون العمل عليه فقال يكون العمل على ما في الازهار ، فقلت : صاحب الازهار أكثر علما من هؤلاء ؟ ، قال : لا ، قلت : فكيف كان اتباع قوله دون أقوالهم لازما ؟ ، قال اصنع كما يصنع الناس ، فاذا فتح الله عليك فستعرف ما يؤخذ به وما يترك ، فسألت الله عند ذلك أن يفتح علي من معارفه ما يتميز لي به الراجح من المرجوح ، وكان هذا في أول بحث نظرته ، وأول موضع درسته ، وقعدت فيه بين يدي العلم ، فاعتبر بهذا ، ولاتستبعد ما ارشدتك إليه ، فتحرم بركة العلم وتمحق فائدته » .

ثم يقول بعد كلام موجها خطابه لكل طالب علم :

« فاذا وطنت نفسك أيها الطالب على الانصاف وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء بل جعلت الناس جميعا بمنزلة واحدة في كونهم منتمين إلى الشريعة ... فقد فزت بأعظم فوائد العلم ، وربحت بأنفس فرائده ... » (٢٢)

الملاحظة الثانية : الاطلاع الواسع شرط في عمق الفهم والنقد :

الاطلاع المستمر هو الذي يقلل فرص الخطإ في الفهم والنقد ، لأنه يوقف طالب العلم على الجديد الذي كان يجهله ، وقد قيل : من زاد علمه قل انكاره ، بل إنه لسعة العلم وبعد غوره يجد العالم أنه أولى بكلمة لا أدري من الجاهل .

أما الاطلاع الهزيل فهو دائما يفضي إلى سطحية النظر واهتزاز التفكير ، وصاحبه إن أصاب مرة أخطأ مرات ، وفي هذا الإطار جاءت وصايا العلماء بطلب العلم حتى الممات ، وما يراه طالب العلم في نفسه من فرق بين علمه في مرحلة وعلمه في مرحلة لاحقة دليل على هذا ، خاصة إذا كان دائم البحث ، ولذلك يستدرك العلماء على أنفسهم حسب ما انتهى إليه بحثهم ودراستهم ، ونجد هذا في الطبعات المنقحة لمؤلفاتهم ويعاب على الباحث ان يجمد على طبعة واحدة عشرات السنين لايمسها بتغيير ، إذا كان في موضوعات الكتاب ما يحتاج إلى مراجعة وتنقيح .

الملاحظة الثالثة : الاطلاع على الفكرة شرط في تأييدها أومعارضتها

ونقصد الإطلاع الكافي لاتضاح الفكرة ، لأن كل مؤيد أو معارض لفكرة ما يدعي اطلاعه عليها .

وساحتنا الفكرية تعج بهذا الصنف الذي يتحدث عن أفكار أو مذاهب لايعرفها على حقيقتها ، فيخوض بغير بينة ، ويشايع أو ينتقد ما ليس له به علم .

إن طالب العلم في مرحلة الطلب مدعو قبل أن يتبنى فكرة أو منهجا أو رأيا ان يعرفه ويطلع عليه ويتأكد أن ذلك الاطلاع يرشحه لاتخاذ موقف ، فهناك فرق بين المعرفة والاطلاع ، وبين اتخاذ موقف بالقبول أو الرفض ، يقول الامام الشوكاني وهو يتحدث عن العلوم التي ينبغي ان يدرسها طالب العلم وقد ذكر علوم اللغة والتفسير والحديث والفقه ، وذكر علم الكلام فقال « واياك ان يثنيك عن الاشتغال بهذا الفن ما تسمعه من كلمات بعض اهل العلم في التنفير عنه ، والتزهيد فيه والتقليل لفائدته فانك إن عملت على ذلك ، وقبلت

ما يقال في الفن قبل معرفته كنت مقلدا فيما لا يدرى ما هو ، وذلك لايليق بما تطلبه من المرتبة العلية ، والكون في الطبقة الاولية ، بل اعرفه حق معرفته ، وانت بعد ذلك مفوض فيما يقوله من مدح أو قدح ، فانه لايقال لك حينئذ انت تمدح ما لا تعرفه ، او تقدح فيما لاتدري ما هو » (٢٣)

وهذا المنهج ليس خاصا بعلم الكلام وحده ، وما علم الكلام إلا مثال ، لكنه منهج عام يسبق فيه الاطلاع والمعرفة ، اصدار حكم واتخاذ موقف ، إذ يمكن أن يستغني طالب العلم عن دراسة علم الكلام بالمرة ، ولكنه إذا اراد التحدث عن هذا العلم ، وتكوين موقف منه يحتفظ به لنفسه او يقدمه للناس ، لابد ان يطلع على موضوعه ومنهجه ومباحثه .

الملاحظة الرابعة : لايكفي الإطلاع على الفكرة بل لابد من الفهم الصحيح لها :

والفهم الصحيح للفكرة هو الذي يسمح بحكم موضوعي عليها ، واكثر ما يحصل سوء الفهم لأفكار الغير عندما ينظر فيها الناظر وهو مشحون لصالحها أو ضدها فيرى فيها ما لايراه الباحث النزيه ، ويُقَوِّل النصوص ما لم يقصد إليها كاتبها كما يرغم الوقائع على قبول تأويلات بعيدة متكلفة ، وقد عانى الفكر الاسلامي من هذا الصنف ، فوجدت اجتهادات جاهلة وأخرى مغرضة تبني اجتهاداتها على التحكم ، والافتراضات المتكلفة ، والتأويلات المتعسفة، وهذا موجود في التفسير والتاريخ وغيرهما ...

الملاحظة الخامسة : الفهم الصحيح لاي علم يستلزم الاطلاع عليه من مظاته الاساسية :

وهذه الملاحظة هي النتيجة الطبيعية للملاحظتين اللتين قبلها ، فلا بد

من اطلاع واسع ، وفهم سليم ، وهما امران يتوقفان على نوع المصادر فكل علم له مصادره الاساسية التي يؤخذ منها وتكون بقية المصادر والمراجع في موضوعه فروعا وشروحا لها ، وإن مما يوفر الجهد أن ينظر طالب العلم في المصادر الاساسية قبل غيرها ، ثم يتعامل مع الدراسات الثانوية بوصفها وجهات نظر يؤخذ منها ويترك .

وهذه الملاحظة تلقي على الحركات الاسلامية التي تتولى تربية الشباب وتوجيههم مسؤولية كبيرة ، لان الشاب في أول عهده بالالتزام والتدين يكون شغوفا بالعلم ، حريصا على الاستزادة منه ، فمثله كمثل مكتشف نزل في جزيرة لم يكن له بها عهد ، وكل شيء فيها جديد عليه ، فاذا لم يجد في هذه البداية من يوجهه إلى الأحسن والافضل ، سار على غير هدى ، ووقع له من الاخطاء في كيفية الاختيار أو الاطلاع ما لا يقف عليه إلا بعد زمان .

فاذا أراد طالب العلم ان يدرس تفسير القرآن فلينظر في تفسير الطبري وابن كثير وابن الجوزي والقرطبي والشوكاني واشباهها .

واذا اراد أن يدرس الفقه فلينظر في الكتب التي تذكر الدليل ، وعُرِف اصحابها بالقدرة على الاجتهاد والترجيح كالمغني لابن قدامة ونيل الاوطار للشوكاني وسبل السلام للصنعاني ، فاذا اراد أن يدرس الفقه على مذهب من المذاهب درسه على كتاب من الكتب المعتمدة لدى علماء ذلك المذهب .

واذا اراد أن يطلب الحديث ، فلينظر في مثل الموطإ لمالك ، والجامع الصحيح للبخاري وبقية الكتب الصحاح ...

وهكذا يفعل في دراسة كل علم دينيا كان أو دنيويا ، وما هذا الضعف في التكوين العلمي عند جمهور المثقفين ، وعند شباب الصحوة الاسلامية إلا نتيجة أحد امرين ، إما الاعراض عن تحصيل العلم بالكلية أو استثقال اخذه

من مصادره الاساسية ، والاكتفاء بالمراجع الثانوية من كتيبات ومجلات وجرائد وأشرطة .

وعندما نقول إن المصادر الاساسية لاي علم يجب أن تقدم على غيرها ، لانقصد كتب التراث القديمة دائما فالقدم ليس مقياسا ، قد يكون من الكتب الحديثة ما هو أهم في بعض فروع العلم ، كما يكون من الكتب القديمة ما لافائدة فيه ، وأحيانا يكون مقال في مجلة أهم في موضوعه من كتاب ، وطالب العلم ينبغي أن يستفتي من سبقه بالعلم والخبرة بالكتب ليقع اختياره دائما على الاصوب والاصلح ، وقد انتبه بعض العلماء عبر عصور الاسلام الى أهمية هذه الملاحظة ، فكتبوا في العلوم الواقعة الى عصرهم ، ومنهم من فصل الكلام في كل علم وذكر المتون والشروح التي يفضل ان يدرسها طالب العلم الراغب في تحصيل تلك العلوم ، تجد ذلك فيما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن العلوم الواقعة إلى عصره ، وما كتبه الغزالي قبله ، في كتاب العلم من إحيائه ، وما كتبه الشوكاني بعدهما في كتابه ادب الطلب ومنتهى الأرب . وغيرهم .

الملاحظة السادسة : صواب الباحث في بعض أبحاثه لا يضفي الصواب على كل انتاجه

ومهما كان الصواب غالبا على اجتهادات عالم ما ، فإن على طالب العلم أن يفتح ذهنه فيقبل وقوع الخطإ منه ، ورغم أن عددا من العلماء قد تلقت الامة علمهم بالقبول ، ونالوا الامامة في الدين لغزارة علمهم ، وسداد رأيهم واجتهادهم ، إلا أن صوابهم الغالب لاينفي احتمال الخطإ منهم وهذا الخطأ يقف عليه علماء أمثالهم ، وعندنا في كل العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول وغيرها أوهام وقعت لعلماء وتداركها آخرون ، ويندر أن تجد كتابا لم

يستدرك عليه أحد لكن بعضها أنظف من بعض ، وهنا تبرز أهمية الاختيار الجيد للكتاب المقروء في علم من العلوم ، واهمية الاطلاع على الاستدراكات التي استدركها عليه العلماء الآخرون ، واقرب مثال لذلك قراءة الكتاب وقراءة تخريج العلماء لأحاديثه لمعرفة درجتها من الصحة والضعف .

ولايمكن أن تعثر على كتاب معصوم ، فالعصمة لله وحده ، لكنك ستعثر على كتاب أفضل من كتاب ، وهذا الاستدراك الذي يقوم به العلماء لكتابات غيرهم هو لصالح القارئ بالدرجة الأولى ، كما أنه لصالح المؤلف لأنه يزيد من نفع كتابه ، ويقلص من ضرر اخطائه واجتهاداته المرجوحة وعندنا في تاريخ المكتبة الاسلامية امثلة لاتحصر لعلماء غيروا من افكارهم لما نشروها على الناس ، وتلقوا تعليقاتهم وانتقاداتهم ، فجاءت طبعات كتبهم منقحة ومعدلة . وهكذا العلم لاحد له ، والانسان لايمكن أن يحيط بكل شيء .

الملاحظة السابعة : موضوعات كل علم تحاكم الى منهجه المناسب

وهذه ملاحظة منهجية أخرى ينبغي لطالب العلم أن يفهمها جيدا ويعض عليها بالنواجذ ، فكل علم له مناهجه التي تبلورت في إطاره وأثبتت نجاعتها في محاكمة أبحاثه والتحقق منها ، فاذا كانت الفكرة فقهية فالتحقق منها يعتمد على ما قرره علم أصول الفقه من قواعد الاجتهاد ومراتبه ، واذا كانت حديثا يراد التحقق من صحته عرض على قواعد علم الحديث ، واذا كانت الفكرة فهما في آية من كتاب الله عرضت على قواعد التفسير ، واذا كانت خبرا تاريخيا عرضت على المنهج التاريخي بما فيه من قواعد النقد الداخلي والخارجي للأخبار والروايات ، واذا كانت الفكرة معلومة تجريبية عرضت على

المنهج التجريبي باساسياته المشتركة بين العلوم والقائمة على وضع الفروض والتحقق منها بالملاحظة ، وخصوصياته داخل كل علم على حدة طبيعيا كان أو انسانيا ...

وبهذه الطريقة يتعود الطالب على العلمية والموضوعية وهو يبني معارفه ومعلوماته ، فاذا اجاز المنهج الفكرة قبلها و اذا رفضها وردها فهو أعرف بحيثيات حكمه ، أما الخروج بالفكرة من مجال العلم الذي تنتسب اليه لاختبارها بمنهج آخر ، فانه يؤدي الى نتائج غير علمية .

والغموض في طريقة التعامل مع الافكار المختلفة هو الذي أدى الى اضطراب كثير من طلاب العلم في تحديد موقف علمي واضح من ابحاث العلوم المختلفة ومعرفة الحق في النقاط المختلف فيها ، كما أن هذا الغموض هو السبب في اختلاط كثير من العقائد الفاسدة والشبهات الباطلة بالعلم في اذهان كثير من طلاب العلم ، وطالب العلم المسلم حتى يواجه ويتحدى ، دون أن تنال الشبهات من ايمانه ، يحتاج إلى هذا المنهج التفصيلي في مناقشة كل فكرة وكل معلومة ، وسيجد أن الحق لا يعارض الحق وانما يعارض الحق الباطل ، والله هو الحق ويقول الحق وهو يهدي السبيل .

الملاحظة الثامنة : لانهجر حقا قال به مبطل :

وعن هذه الملاحظة يقول ابو حامد الغزالي (٢٤) في كتابه المنقذ من الضلال وقد انكر عليه بعض معاصريه ايراده بعض المقتبسات من كتب الفلسفة : « وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فاذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فَلِمَ ينبغي أن يهجر أو ينكر ؟ فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيرا من آيات القرآن ، وأخبار الرسول صلى الله

عليه وسلم ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية ، لأن صاحب اخوان الصفا اوردها في كتابه ، مستشهدا بها ، ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من ايدينا بايداعه في كتبهم .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام واسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلا ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقا ، فأبدا يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق وهو غاية الضلال ... »

ومضمون هذا الكلام أن العلم يوخذ مجردا عن أصحابه وقائليه ، لكن ما ذكره أبوحامد عن أهل القرن الخامس الهجري لازالت له امثلة في حياتنا الفكرية ، ولازال المثقفون وطلاب العلم يتأثرون بسمعة الكاتب أكثر مما يتأثرون بعلمه ، فتنتشر كتابات عديدة لاتستحق ما أعطي لها من قيمة والامثلة كثيرة في الادب والدراسات الاسلامية وغيرها .

الملاحظة التاسعة : ليس من اللازم دائما تتبع كل فكرة في مصادرها الاصلية :

فالطالب اذا لم يكن متخصصا في علم معين ، ولا يعنيه أن يقف على فكرة في مصادرها الاصلية وفي كتابات أصحابها يمكنه أن يستفيد من الدراسات العلمية التي تناولت تلك الفكرة ، وهنا تبرز اهمية الكتب التي تعتمد الموضوعية في نقد الافكار والمذاهب المختلفة وتنقل عن أصحابها مباشرة ، فتقدم وصفا تاما للفكرة قبل نقدها ومناقشتها .

ولا تتعارض هذه الملاحظة مع الملاحظة الخامسة ، إذا كان وقت الطالب

لايتسع للوقوف على تلك الافكار في مصادرها الاصلية ، ودراستها بلغة اصحابها ، فاذا قام دارس بشرح الفكرة ، وبين ما لها وما عليها ، فدراسته تلك تغني غير المتخصص وتفيده .

الملاحظة العاشرة : الوضوح والصراحة من سمات البحث العلمي :

فالباحث يمسك قلمه حتى إذا تحقق من صحة ابحاثه واستنتاجاته اعلنها واضحة صريحة ، لانها لاتكون قابلة للفهم والنقد إلا بذلك ، وكل التواء أو غموض او تردد في اعلان النتائج يشوش على القارئ ، ويذهب بالفائدة من البحث .

وقد كان هذا الخلق العلمي من سمات علماء المسلمين ، فابو حامد الغزالي مثلا ، لم يتردد بعد دراسته للفلسفة أن يعلن كفر الفلاسفة في مسائل ، وابتداعهم في مسائل وصدقهم في مسائل، فاثبت ما فيه الكفر وما فيه الابتداع ، وما فيه الصدق ، واعتمد في احكامه على الوحي والعقل والتجربة فكُفرهم وابتداعهم في الالهيات أكثر ، وصدقهم في الطبيعيات والرياضيات أكثر .

وابن تيمية بعد دراسته للتصوف يعلن انقسامه إلى تصوف العلوم والاخلاق ، وتصوف الرسوم والارزاق ، وانقسام اهله إلى شيوخ العلم والايمان ، ورؤساء البدعة والضلال ، واعتمد هذا التقسيم حتى يمكنه تمييز المقبول والمرفوض من هذا العلم بكل وضوح ، واعتمد في حكمه أيضا على الوحي والعقل والتجربة .

إن الباحث متى استيقن صدق نتائج بحثه فلا احسن من اعلانها بكل

وضـوح ، وفـائدة هذه الملاحظة على لطلب العلم أنهـا تعـوده على الوضـوح والصراحة من البداية ، فلا يستعجل بإصدار حكم أو اغلاق موضوع حتى يستوثق أنه استجمع حيثياته ، واستكمل معلوماته . وتبقى همته معلقة بمن يوفي القضايا حقهـا من البحث ، ويدعهـا واضحة بينة ، وليس كل المؤلفين تتميز كتاباتهم بذلك .

هذه عشر ملاحظات منهجية على ضوئها يختار طالب العلم مقروءاته في كل علم ، لأن ما كتب في كل علم كثير ، وبعضه أفضل من بعض ، فهي تعنيه عند الانتقاء والاختيار .

الفصل الرابع
اقتراحات عملية

كما تحدث علماؤنا عن العلم الشرعي ، تحدثوا عن طرق تحصيله ، وجعلوها ست مراتب ، أولها حسن السؤال ، والثانية حسن الانصات ، والثالثة حسن الفهم ، والرابعة حسن الحفظ ، والخامسة حسن التعليم والسادسة حسن العمل .

فمن الناس من يحرم العلم لسوء سؤاله ، إما لأنه لايسأل بحال حياء أو كبرا ، وإما أنه يسأل عن الشيء وغيره أهم إليه منه ، كمن يسأل عن فضول العلم التي لا يضره الجهل بها ، ويترك ما لاغنى له عن معرفته .

ولم يكن الاحترام الكبير الذي يكنه الطالب لاستاذه ليحول دون سؤاله ومناقشته ، ومما يؤثر عن أبي حنيفة أنه كان يعتمد على المناقشة في التعليم واستخراج الاحكام ، وكانت طريقته أن يعرض المسألة على طلابه ، وكل واحد يبدي ماعنده في حكمها ، فاذا اتفقوا على شيء أمر أحدهم أن يكتبه .

وقد عرفت مجالس العلم عند المسلمين الأسئلة الكتابية والشفوية ، وكان العلماء يؤكدون أهمية السؤال في العملية التعليمية وقد اشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن الجامعات المغربية في القرن الثامن الهجري لما اهملت طريقة المناقشة ضعفت الملكة العلمية بين طلابها « فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم قد حصل تجد ملكته قاصرة

في علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذالك » (٢٥) ولا زال هذا الذي ذكره ابن خلدون إحدى سلبيات الطريقة التعليمية المتبعة في المدارس العتيقة رغم إيجابياتها في الحفظ والاستظهار .

وقد تحدث العلماء عن آداب السؤال والمناقشة ، بما يكفل للاستاذ هيبته و للطالب حرية الرأي وحسن الاستفادة .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء إنصاته : فيكون الكلام والمراء أحب إليه وهي آفة اذا ابتلي بها الطالب منعته علما كثيرا ولو كان حسن الفهم ، ولذلك اثر عن علي بن ابي طالب قوله لابنه الحسن : يابني تعلم حسن الاستماع قبل أن تتعلم حسن الحديث ، ومن كلام بعض السلف: من كان حسن الفهم رديء الاستماع ، لم يقم خيره بشره .

ومن فوائد حسن الانصات أن طالب العلم يزيد إلى علمه الجديد الذي لم يكن يعلمه ، فإن الاستاذ إذا رأى من تلميذه حسن الاقبال والاستماع نصح في تعليمه وافادته ، ولم يبخل عليه من علمه بشيء .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء فهمه : والفهم والحفظ دعامتا الطالب في كل علم يطلبه ، الفهم لتنكشف له مسائله فيفهمها ، والحفظ لترسخ في ذاكرته فيذكرها عند الحاجة ، وقد اهتم العلماء والمربون خلال العصور الاسلامية بهتين الأداتين ، وقسموا العلم الى « رواية » عمادها الحفظ، ودراية عمادها الفهم ، ووجد في كل علم شرعي جانب الرواية والنقل ، وجانب الفهم والاستدلال ، وكما نبغ ما لا يحصى من العلماء في الحفظ واستظهار النصوص نبغ مثل ذلك في الاجتهاد الفقهي والقياس الاصولي .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء حفظه : وقد كان الحفظ أهم اداة لحفظ العلم وصيانته من الضياع ، وكان اداة مستعملة في جميع مراحل التعلم لعدة اسباب منها

أ - صعوبة الكتابة ، وصعوبة الحصول عليها وعلى ادواتها من الورق والحبر ونحو ذلك

ب - تشجيع الاسلام على حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتفضيل حفاظهما .

ج - حاجة علماء الحديث لمعرفة صحة الاحاديث وضعفها إلى البحث في الاسانيد واسماء الرجال واحوالهم ، وذلك لا يتحقق إلا بالحفظ الكثير .

د - نشوء علم اللغة لضبط كلام العرب وتقييده وهو أمر يحتاج إلى حافظة قوية فكان المحدثون واللغويون اكثر العلماء اعتمادا على الحفظ واشادة به .

وكما أكد العلماء اهمية الحفظ في تحصيل العلوم ، قدموا مقترحات للحفظ الجيد ومنها :

أ - ترويض الذاكرة منذ الصبا على حفظ النصوص النثرية والشعرية فكان الطالب في معظم بلاد الاسلام يبدأ بحفظ القرآن الكريم ثم يحفظ بعده امهات المتون الشرعية واللغوية والأدبية شعرية ونثرية .

ب - التكرار المتقارب والتكرار المتباعد ، فبعد تكرار المحفوظ ورسوخه يعاد بعد مدة كما كان يفعل الطلاب في حفظ القرآن الكريم ومختلف المتون .

ج - الجد والمواظبة والاستمرار ، لان الحفظ يحتاج إلي التكرار ، والتكرار مدعاة إلى الملل ، واذا لم يواظب الطالب فانه ينقطع .

د - تصحيح النية في طلب العلم ، والعمل بما تعلم منه ، وهذان الامران ، الاخلاص عند تحصيل العلم ، والعمل به بعد تحصيله لهما اثر عجيب

في قوة الحافظة وانفتاح البصيرة ، وفي هذا يذكر البيتان المشهوران :

شكوت الى وكيع سوء حفظي   فارشدني الى ترك المعاصي

وقال بني ان العلم نور   ونور الله لا يؤتاه عاصي

هـ - اختيار الاوقات المناسبة التي يكون فيها الذهن صافيا مستريحا خاليا من الشواغل .

و - اختيار الاماكن الهادئة البعيدة عن الصخب والضوضاء والقواطع التي تقطع على الطالب استرساله في الحفظ والاستظهار .

ومن الناس من يحرم العلم بسبب الامتناع عن نشره :

فالعلم كما يزكو بالانفاق ويزيد ، يذهب بالامتناع عن تعليمه ونشره ، وكثيرا ما يكون تعليم العلم تعلما جديدا لمسائله ، حيث يوقفه تعليمه ذاك على ما كان يجهل من قضاياه ، إما بالوقوف عليها بنفسه أو بتنبيه من يتلقون عنه .

وقد أخذ الله على العلماء من الميثاق ما اخذ على الانبياء ، ان يبينوا للناس العلم ولا يكتمونه ، قال الله عز وجل : « إن الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (البقرة/آية ١٥٩) .

ولو استن العلماء بسنة الكتمان لانقرض العلم ولم يصل الى من بعدهم فالبخل بالعلم اقبح انواع البخل ، وضرره ان يصاب الناس بأخطر انواع الفقر وهو الفقر من العلم ، فيصيروا مع الايام جهالا ، فرحم الله علماءنا ، كانوا يقسمون اعمارهم قسمين ، قسم يتعلمون فيه وقسم يعلمون فيه ، وكانوا يعظمون العلم اثناء تحصيله ، ويعظمونه اثناء تعليمه .

« كان مالك رضي الله عنه إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ، ووضع رداءه على رأسه ثم يجلس على منصة ،

ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ ، وقال : احب أن اعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٢٦)

وقد قام علماء الاسلام بواجب التعليم بجميع الوسائل التي أمكنتهم ، وقد اشتهر منها :

أ - الإقراء : وهو تدريس الاستاذ انتاجا ليس له ، كشرحه للمتون أو تقريره للشروح ، وهذا أكثر الطرق استعمالا ، وقد اشتهر في كل فن جملة من المتون ، كانت تدرس بالإقراء .

ب - الإملاء : وفي هذا النوع من المجالس يملي العالم الحديث أو اللغة ويذكر سنده ، ثم يذكر عندما يشرح فوائده المبتكرة ، فتكون أماليه هي انتاجه العلمي الخاص ، وكان العلماء يتنافسون ايهم يسجل اكبر عدد من مجالس الاملاء .

ج - المناظرة : وهي المناقشات التي تجري بين العلماء مشافهة ومراسلة وقد ذكروا لها آدابا تضبط اجراءها ، حتى تكون مناظرة مفيدة ومثمرة .

د - المحاضرة : وهي الدرس العام في موضوع معين ، يلقيه الاستاذ على تلاميذه فتعقبه اسئلة تتم موضوعه ، وتكمل ما نقص منه في العرض :

هـ- الموعظة : وهي موضوعات متفرقة يقصد منها التذكير والترغيب والترهيب .

وقد كان تداول أهل العلم لهذه الطرائق في التدريس سببا في ظهور مؤلفات نفيسة جمعها أصحابها من دروسهم ومستملياتهم التي كانوا يذاكرونها مع طلابهم ، ومن أمثلتها فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، فقد جمعه مما حدث به في مجلس الحديث الذي كان يعقده لطلاب العلم خلال خمس وعشرين سنة ، كما ذكر في مقدمته ، حتى إن آخر يوم

حدث فيه بآخر باب من أبواب الصحيح كان يوما مشهودا في القاهرة .

ومن الامثلة كذلك كتاب المبسوط في الفقه الحنفي في أكثر من ثلاثين جزءا ، فهو مجموع ما أملاه شمس الائمة السرخسي على طلبته ، « املاه على طلبته وهو في السجن " بأوزجند " ، إذ كان محبوسا في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان ، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة في كتاب وهو في الجب ، وتلاميذه في أعلى الجب ، وقال عند فراغه من شرح العبادات هذا آخر شرح العبادات ، بأوضح المعاني وأوجز العبارات ، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات ... وقال في آخر شرح الإقرار : انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار ، باملاء المحبوس في مجلس الأشرار ... وله كتاب في اصول الفقه ، وشرح السير الكبير ، أملاه وهو في الجب ، ولما وصل إلى باب الشروط ، حصل له الفرج » (٢٧)

وكثير من كتب التفسير والحديث والفقه مؤلف بهذه الطريقة ، ولهذا حصلت اختلافات في نسخها حسب رواية كل تلميذ ، فيكون الكتاب في أوله محاضرات أو دروسا يمليها الاستاذ على تلاميذه ، ويجمعها في كتاب ثم يُدَرِّس الكتاب فيزيد فيه وينقح ويضيف حسب ما ينكشف له من خلال المطالعة والمناظرة والتدريس والأسئلة .

ولقد كان من عادة من يسمع شيئا عن استاذ من الاساتذة ، أن يكتب كلمة علي ما كتبه يسجل فيها اسم استاذه واسمه هو ، وتاريخ ذلك ، ويسمى ما يكتبه حينئذ سماعا ، وقد حملت إلينا المخطوطات العربية التي وصلتنا كثيرا من عبارات السماع هذه ، والى طريقة السماع يرجع السبب في اختلاف نصوص بعض الكتب التي وصلتنا رواياتها من طرق متعددة ككتاب الموطأ ، فلهذا الكتاب اثنتان وعشرون رواية تختلف زيادة ونقصا .

وحفظ العلم عن طريق نشره إنما يتحقق لمن اخلص نيته ، ولهذا أكد العلماء على الاخلاص في تعليم العلم ، وذكروا من علامات الاخلاص ألا يكون قصده التماس الجاه بالعلم ، وألا يحتكر علمه ويكره وجوده عند غيره ، وألا يغضب إن رد عليه شيء منه ، والا يعجب بعلمه ، وألا يميز بين الناس في تعليمه ، والا يطلب من العلم ما ينسبه إلى الاطلاع الواسع قال الشافعي : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ولم ينسب إلي منه شيء » .

لكن إن أخذ على تعليمه ما يسد حاجاته المعاشية والعلمية فلا بأس ، وبهذا يتم التوفيق بين موقف العلماء الذين يأخذون جرايات وأوقافا على تعليمهم وموقف آخرين لم يأخذوا ، فهذا الذي يأخذونه ليس قادحا في اخلاصهم ولا يدخل عملهم في التعليم لاجل الدنيا ، لأن نيتهم عندما يبثون العلم وينشرونه هي إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والأمة مأمورة أن تسد كفايتهم وكفاية عيالهم اذا تفرغوا لهذا الفرض الكفائي ، مثلهم مثل سائر الأطر والكفاءات التي تنهض ببقية فروض الكفايات ، وتتلقى مقابلا ماديا كفاء ما يقومون به من مهام وأعمال ، وأما إذا استغنى العالم بمال عنده ، وانتدب نفسه لتعليم العلم ابتغاء الجزاء الاخروي فحسب فهذا حق تنازل عنه فله من الله الاجر والثواب :

« بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن مالك ، والحارث بن ابي محمد الى البادية ، أن يعلما الناس السنة ، وأجرى عليهما الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ، فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسا ، وأكثر الله فينا مثل الحارث » (٢٨)

هذا الاخلاص وهذا التجرد ، كانا وراء العزة التي عاش بها عدد من علماء الاسلام ، فمكنتهم من قول الحق ، والنصح للأمة ، والافتاء بحرية ،

وتربية الطلاب والتلاميذ بعيدا عن قيود الوظائف الدينية والعلمية كما أن عددا آخر لم يمنعهم تقلد الوظائف الدينية والعلمية من الجهر بالحق ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصح في التعليم ، وبذل اقصى الجهد في ذلك .

فليست الوظيفة التي يتقلدها العالم هي منبع فساد نيته ، وضياع الاخلاص من عمله ، ولكن اذا كانت الدنيا اكبر همه ، ومبلغ علمه ، كثرت أطماعه ، فازداد حرصه وطال أمله ، فسخر علمه لتحصيل المال والجاه ، وما أحسن ما قال على بن عبد العزيز الجرجاني (١) (ت ٣٦٦هـ)

ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي
لأخدُم مَنْ لاقَيْتُ لكن لأُخْدَما
أ أشْقى به غرساً وأجنيه ذلة
إذن فاتباعُ الجهل قد كان أحْزَما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهُم
ولو عَظَّموه في النفوس لعَظّما
ولكنهم أهانوه ودنسوا
مُحَيّاه بالحرص حتى تجهما

ومن الناس من يحرم العلم لتركه العمل به : فالعمل بالعلم يعين على تذكره ، وأكثر ما ينسى من العلم ما كان معطلا منه ، يقع ذلك للمسلم ويقع للأمة ككل ، فعندما تترك العمل بحكم من أحكام الدين تبتلى بنسيانه فتنشأ الأجيال الجديدة على جهل تام بذلك الحكم إلا قلة من أهل العلم

ممن يدرسه في مظانه ومصادره ، لهذا كان السلف يستعينون على حفظ العلم بالعمل به، فتؤثر هذه النية عند طلبه وتحصيله ، قال بعض العلماء : كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليخبر به لا ليعمل به ، وقد جاء في سيرة الامام احمد أنه لايثبت حديثا في مسنده حتى يعمل به ، وكذا غيره من العلماء العاملين ، وفي هذا الموطن يذكر القول المأثور عن بعض السلف : كل الناس هلكى الا العالمون ، وكل العالمين هلكى الا العاملون ، وكل العاملين هلكى إلا المخلصون .

العلم إحدى الامانات التي يسأل عنها العبد يوم القيامة ، ولاتزول قدماه حتى يجيب عنها ، الأولى عمره والثانية شبابه والثالثة ماله والرابعة علمه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما افناه وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن جسمه فيم ابلاه » (٢٩)

فاذا عمل العبد بعلمه كان حجة له ، واذا لم يعمل به كان حجة عليه ، فلا خيار له ، ولاينفعه يوم القيامة أن يقول إنا كنا عن هذا غافلين ، أو كنا له من الجاهلين ، فلا عذر لأحد بجهله ولاعذر له إذا علم إن لم يكن قد عمل بعلمه، وليس أمامه إذا أراد النجاة ، إلا أن يتعلم ثم يعمل .

قال الله عز وجل : « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا باياتي ثمنا قليلا » (المائدة/آية ٤٦) .

والعالم أمين على ما استحفظ من كتاب الله ، فعليه أن يخشى الله فيه بتطبيقه وتعليمه .

وربما سوّف الشيطان العبد في العمل بعلمه حتى يموت ولم يقض شيئا لذا ينبغي مقارنة العلم بالعمل ، وأن يبدأ بالاهم من دينه فيتعلمه ويعمل به ثم ينتقل الى ما سوى ذلك، وقد اثر عن الامام مالك قوله : « ان طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح الى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئا » .

ومعلوم أن العالم إذا كان فاجرا فإنه يكون فتنة للناس لأن فجوره يعطي للعامة متمسكا لتهاونهم بأوامر الدين ، كما قال بعض السلف : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ، قال ابن القيم (٣٠) « فان الناس انما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فاذا كان العلماء فجرة ، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة » .

على ضوء هذه المراتب الست سنتحدث عن بعض الاقتراحات العملية التي تفيدنا -باذن الله- في تحصيل أفضل ، وستشمل الاهداف والوسائل .

أولا - تصحيح الهدف من القراءة والتعلم :

اول هذا الطريق كما تقدم معنا هو اخلاص النية لله عز وجل ، والولوج الى طريق العلم بقلب خال من نوازع الرياء وحب الشهرة والمحمدة بين الناس ، مليء بالرغبة في نفي الجهل عن النفس ، وتزكيتها بالعلم ، ويمكن أن نقسم اهداف المسلم وهو يطلب العلم الى ثلاثة :

أ - ترسيخ المعرفة بالله ، والايمان به عز وجل ، فإن المعرفة بآيات الله الكونية وآياته الشرعية تزيد من المعرفة بالله وصفاته واسمائه ، وهذا أشرف الاهداف وأعلاها ، ولذلك أمر سبحانه وتعالى في اول آية بالقراءة في كتاب الكون وكتاب النفس ، وجعل ذلك الامر بالقراءة هو أول آيات في كتابه الثاني كتاب الوحي ، فجعل القراءة والتعلم بداية البدايات « اقرا باسم ربك

الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق/آية ١-٥) .

ب - تصحيح كيفية عبادته ، حتى توافق الشرع الذي انزله على رسوله، وهذا القيام بحق العبودية على علم هدف لاحد لاهميته فالذي يعبد الله على غير علم يفسد أكثر مما يصلح ، وقد قام الإسلام كله على أساسين عظيمين: أولهما : أن يعبد الله والثاني أن يعبد بما شرع وذلك شهادة أن لا اله إلا الله ، وان محمدا رسول الله ؛ فمدار قبول الأعمال على شرط الاخلاص وشرط المتابعة ، وما دام المسلم ضعيف المعرفة بدينه فهو عرضة للوقوع في بدع لاحصر لها ، ومعرض لترك أعمال صالحة كثيرة حرمه منها جهله بها وبفضلها وثوابها .

ج - القدرة على الإفتاء ، والمناظرة ، فالمسلم يواجه أسئلة كثيرة من نفسه ومن غيره ، ويلزمه الأفتاء فيها بما يعلم ، وحتى توافق فتواه حكم الاسلام الصحيح ، عليه أن يحيط علما بما استفتي فيه وسئل عنه ، وذلك يحتاج إلى اطلاع وقراءة وتعلم .

ونوجز نية المسلم في طلب العلم فنقول بأنه يتعلم لثلاثة أهداف هي:
١) أن يعرف ربه ٢) وأن يعرف كيف يعبده ، و ٣) ويعرف كيف يدعو إليه .

فأما معرفة الله تعالى فيدخل فيها مدارسة القرآن الكريم وقراءة تفسيره ومدارسة السنة والتفقه فيها ، ويدخل فيها دراسة علم العقائد ودراسة الملل والنحل ، وقراءة الكتب المؤلفة في عجائب المخلوقات والدراسات التي تبحث في آيات الأنفس والآفاق ...

وأما معرفة كيفية عبادته : فيدخل فيها كتب السنة ، وكتب الفقه والأحكام ، والكتب المؤلفة لبيان أنواع البدع والمحدثات وكتب السيرة والتراجم ...

وأما معرفة كيفية الدعوة إليه : فيدخل فيها اضافة إلى ما سبق الكتب المؤلفة في فقه الدعوة ، والكتب التاريخية ، والمذكرات ، وكل ما يزيد من معرفة المسلم بواقعه أو يكسبه خبرة في التعامل معه ، وهذه الدائرة أوسع الدوائر الثلاث كلها لأنها تشمل كثيرا من الكتب والعلوم التي ليست « اسلامية » بالمعنى الخاص لهذه الكلمة .

ويستطيع طالب العلم الحريص على تصحيح نيته في كل ما يقرأ ، أن يصنف جميع مقروءاته تحت واحد من هذه الأهداف الثلاثة ، فتكون نيته في كل ما يقرأ صالحة إن شاء الله ، وإنما الأعمال بالنيات .

وما ذكرناه هو النية العامة ، وهناك أهداف خاصة بكل علم يطلبه أو كتاب يقرأه أو بحث ينجزه .

ثانيا - إعداد أسماء الكتب وترتيبها :

تحدث العلماء ، عن هذه الخطوة الثانية ، فذكروا بعد إخلاص النية ، التحري في الأخذ عن الثقات ، فهذا العلم دين تدين الله به ، فلا يكفي أن تصحح نيتك ، لتعمد إلى كل ما تصل إليه يداك من كتب ودراسات فتقرأه على غير ترتيب ، فالكتب كثيرة والعمر قصير ، ومن الكتب ما يستحق أن يقرأ ، ومنها ما لا يستحق كما أن منها الضروري الذي ينبغي تقديمه ، والأقل أهمية الذي ينبغي تأخيره فلا غنى لطالب العلم الذي يضن بزمان الصبوة ، وايام الطلب عن برنامج يرتب فيه الكتب وفق موازنات وأولويات معينة ، ويكون ذلك الترتيب من الفقه الذي يسير به المسلم في حياته كلها سواء منها العلمية أو العملية .

وبما أن ما كتب في كل علم كثير ، فيستحسن أن يعد الطالب لائحتين ، الأولى عبارة عن قائمة منتقاة يكون فيها من كل علم كتاب أو كتابان ويراعى

في اختيارها ان تغطي الجوانب الضرورية من العلم بالاسلام ، أو ذلك القدر من العلم بالدين الذي لا يجوز الجهل به ، ولا يجوز التأخر في معرفته ، ثم يعد لائحة أخرى أوسع تضم كتبا عدة في كل علم من علوم الاسلام . (٣١)

وسنقترح في كل مجموعة كتبا مختارة على أن اقتراحها لا يعني أنها سالمة من أي نقد ، أو أن ما ورد فيها صحيح كله ، ولكن ما استدرك عليها لا يحول دون اعتمادها في المجموعة الأولى التي يبدأ بها المسلم دراسته للاسلام . وقبل أن نذكر عناوين هذه الكتب نسجل الملاحظات الآتية :

أ - في بداية التعرف على الاسلام لابد من قراءة نوعين من الكتب ، نوع يتحدث عن محاسن الاسلام وخصائصه ، ونوع يتحدث عن أحكامه وتشريعاته ، فطالب العلم في مبتدئه بحاجة إلى إيمان عميق بكمال الاسلام ، وأفضليته على غيره من المذاهب التي يدين الناس بها . ثم هو بحاجة إلى معرفة هذا الاسلام تفصيلا حتى يعمل به ويلتزم بأحكامه وبعبارة أخرى هو بحاجة إلى قراءات موسعة ليعرف جواب سؤالين احدهما لماذا يعبد الله ؟ والثاني كيف يعبده ويطيعه ؟

ب - عندما نريد دراسة الاسلام ينبغي أن نبدأ أولا بالدراسات التي تعرف بالاسلام بصفة مجملة ، حتى ترتسم صورته في أذهاننا بشكلها الصحيح وبعد ذلك ندرس التفاصيل ، أما الشروع في دراسة الأحكام الجزئية قبل التعرف على التصميم العام والتصنيفات الأساسية التي صنفت إليها تلك الأحكام ، فإنه يؤدي إلى تناثر تلك الاحكام الجزئية ، وعدم وضوح المواقع التي تأخذها في بناء الاسلام الكلي .

ج - إن الأحاديث والكتابات الأولى التي يقرأها الشخص عن اي مبدأ تأثيرا عميقا في نظرته إلى ذلك المبدأ ، ويصعب فيما بعد تغيير تلك الصور

والانطباعات الاولى التي تكونت لديه . ومن هنا يكتسي اختيار الكتب الأولى أهمية كبيرة جدا ، حتى تنطبع في ذهن قارئها صور حسنة عن الاسلام وتمتلئ نفسه إعجابا بهذا الدين ، وانبهارا بدقة أحكامه ، وشمولها وروعتها وكما قال الاستاذ محمد أسد في كتابه الاسلام على مفترق الطرق ، (٣٢) في معرض إجابته عن سبب إسلامه :

« منذ أن اعتنقت الاسلام وهذا السؤال يلقى علي مرة بعد مرة ، لماذا اعتنقت الاسلام وما الذي جذبك منه خاصة ؟ وهنا يجب أن أعترف بأنني لاأعرف جوابا شافيا ، لم يكن الذي جذبني تعليما خاصا من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص ، بما لانستطيع له تفسيرا من التعاليم الاخلاقية بالإضافة إلى مناهج الحياة العملية .

« ولااستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها ، فان الاسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ، ويشد بعضها بعضا ، فليس هناك شيء لاحاجة إليه ، وليس هناك نقص في شيء ، فنتج عن ذلك ائتلاف متزن مرصوص ، ولعل هذا الشعور من ان جميع ما في الاسلام من تعاليم وفرائض « قد وضعت مواضعها » هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي » .

هذا الانطباع الذي ذكره محمد أسد هو الذي ينبغي أن يجده كل دارس للاسلام ، وعندما نقترح الكتب الأولى ينبغي استحضار هذا الهدف فتعريف الاسلام بهذه الصورة التي تشبه في تناسقها الجسم الانساني عندما تأخذ الاعضاء فيه مواضعها وتؤدي وظائفها في انسجام تام يجب أن يسبق أي دراسة تفصيلية لأحكامه حتى إذا درس حكما من الاحكام أو تعرف على سنة من السنن عرف انتماءها واستطاع أن يضعها في مكانها من مجموع الاسلام .

د - ولابد عند إقتراح كتب هذه المجموعة الاولى أن تستحضر الاجواء النفسية والفكرية التي يكون عليها طالب العلم في هذه المرحلة ، عندما يكون حديث عهد بالثقافة الاسلامية ، شديد التطلع إلى الاسلام ، قوي الرغبة في دراستة ، سريع التأثر بما يقرأه ويطالعه ، فهي مرحلة تحتاج إلى حماية كالحماية التي يحتاجها الجنين في أشهره الثلاثة الاولى حيث يكون عرضة لانواع من التشوهات الخلقية التي تؤثر في سلامة نموه بعد ذلك ، وهذا يتطلب اختيار كتب نفعها كثير وضررها ضئيل ، والضرر المتوقع قد يأتي من بعض الافكار الخاطئة أو الاجتهادات الضعيفة والمرجوحة ، ويتضاءل ذلك الضرر إذا تم التعريف بتلك الكتب وتم التنبيه على ما فيها من أخطاء ، دون أن ينقص من قدرها وقيمتها :

المجموعة الاولى :

١ - تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم بعد حفظ سوره وترتيلها ويقرأ تفسيرها في تفسير ابن كثير وتفسير ابن الجوزي وتفسير الظلال وانما يبدأ بهذه السور ترتيلا وحفظا وتفسيرا لأنه يحتاج اليها في صلواته ، ومعرفة طرف من معانيها يعين على تدبرها عند التلاوة وهو المقصود من تلاوة القرآن داخل الصلاة وخارجها .

٢ - قراءة سلسلة « الاصول الثلاثة » ، « الله » ، و « الرسول » و « الاسلام » وهذه السلسلة جمعت ما كتب حول هذه الأصول الثلاثة كان فيها الاستاذ سعيد حوى جامعا ومرتبا أكثر منه مؤلفا ، فكان الكتاب الأول عن الاصل الاول وهو الله جل جلاله ، حيث قسمه إلى أبواب بحسب الظواهر والآيات الدالة على الله في خلقه مثل ظاهرة الوحدة والحكمة والخلق وغيرها ثم تحدث عن دلالة هذه الآيات على الله تعالى .

أما الأصل الثاني « الرسول » فقد قسمه إلى خمسة أقسام تناول في كل واحد منها دليلا من الادلة الشاهدة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهي الصفات والمعجزات والنبوءات والبشارات والثمرات .

واما الاصل الثالث « الاسلام » فقد تحدث فيه عن تعريف الاسلام بوصفه عقائد وعبادات ومناهج حياة .

وأصل هذه السلسلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » .

وكما ذكرنا في ملاحظة سابقة ، فالاطلاع على لوحة الاسلام اطلاعا شموليا قبل دراستها تفصيلا ، يعصم من النظرات الجزئية والتصورات القاصرة فالصورة التي يحملها المسلم عن الاسلام هي التي تقوده وتوجهه في تعلمه والعمل به على السواء .

٣ - خصائص الاسلام العامة « للدكتور يوسف القرضاوي » ومن تمام معرفة الاسلام معرفة خصائصه العامة ، وقد جمع الدكتور في هذا الكتاب ايضا ما تفرق في غيره حول هذه الخصائص ، فتحدث عن سبع خصائص هي الربانية والانسانية والشمول والوسطية والواقعية والوضوح والجمع بين الثبات والمرونة وبيّن تجليات هذه الخصائص في عقيدة الاسلام وشريعته .

٤ - « الاسلام يتحدى » للاستاذ وحيد الدين خان ، وهو كتاب مناسب لهذه المرحلة ، وهو رغم صغره يتناول قضية الايمان بالغيب بأركانه الاساسية من ايمان بالله والنبوة واليوم الآخر بأسلوب علمي جديد كما يتناول الدين ومشكلات الحضارة ، ويتناول مفهوم السعادة بين الاسلام والفكر الوضعي المعاصر وبين الحياة التي ينشدها الانسان ، وانها في الاسلام دون سواه .

إنه كتاب يناسب في طرحه لقضايا الايمان عقلية العصر ، لانه يتخذ

من الادلة الطبيعية والبيولوجية مدخلا الى الايمان بعقائد الاسلام ، كما يتخذ من الشواهد الواقعية من حياة الغرب مدخلا إلى الايمان بشرائعه .

٥ - الايمان والحياة « للدكتور يوسف القرضاوي ، يعرض في هذا الكتاب لأثر الايمان في حياة الفرد وأثره في حياة المجتمع ، وبعد أن يتحدث عن معنى الايمان الصحيح وخصائصه يتحدث عن بعض ثمراته في حياة الفرد من شعور بالكرامة واحساس بالسعادة ، يتجلى ذلك في سكينة النفس والرضا والامن والامل والحب والثبات وغيرها ، ويتحدث بعدها عن ثمرات الايمان في حياة المجتمع في مختلف المجالات ، وأخيرا يعرض للعلاقة بين العلم والايمان في المنظور الاسلامي ، والكتاب في كل فصوله مليء بالشواهد والأمثلة من القرآن والسيرة والتاريخ الاسلامي والواقع المعاصر ، فهو يعرض قضية الايمان عرضا مختلفا تماما عن كتب التوحيد والعقائد المتأثرة بالمنهج الكلامي .

٦ - « التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » للشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو مجموعة من الابواب المختصرة في معنى التوحيد وفضله ، ومعنى الشرك وانواعه خاصة ما كان شركا في الربوبية مثل الذبح لغير الله ، والاستغاثة بغير الله والنذر لغير الله ، وعبادة القبور ، والسحر ، وأنواع أخرى وردت في الكتاب . وله شروح منها فتح المجيد ، لمن اراد التوسع .

٧ - « مسائل الجاهلية » التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ، ألف أصلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتوسع فيها السيد محمود شكري الالوسي ، وموضوع هذا الكتاب مكمل لموضوع الكتاب الذي قبله ذكر مئة مسألة من مسائل الجاهلية التي خالفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بهديه وسنته منها دعاء الصالحين والاحتجاج بما كان عليه الآباء بلا دليل ، والجدال بغير علم ، والافتراء على المومنين ، والفخر بالأحساب والنياحة

إلى غير ذلك من المسائل التي احتوتها هذه الرسالة .

٨ - « العقيدة الطحاوية » بشرح وتعليق الشيخ ناصر الدين الالباني وهي نموذج للمختصرات التي كتبها العلماء في عقيدة اهل السنة والجماعة ، وقد تلقت الامة هذه العقيدة بالقبول ، وقد شرحها وعلق عليها الشيخ ناصرالدين الالباني وهو شرح كاف لفهمها ، ولها شرح أوسع لابن ابي العز الحنفي . وهو مطبوع متداول .

٩ « العبادة في الاسلام » للدكتور يوسف القرضاوي ، وفي هذا الكتاب تحدث المؤلف عن معنى العبادة في الاسلام وشمولها لكل نشاط بشري، كما تحدث عن غاية هذه العبادة وحكمتها ، وتناول الاصلاح الذي قام به الاسلام في مجال العبادة حيث حررها من رق الكهنوت وجعلها خالصة لله وحده ، ووحد مصدرها فجعله الكتاب والسنة الصحيحة ، وبناها على التوازن واليسر ، ثم تحدث المؤلف عن عبادات الاسلام الكبرى الصلاة والزكاة والصيام والحج وركز على اسرارها ومقاصدها .

١٠ - « منهاج المسلم » للشيخ ابو بكر الجزائري ، في جزء واحد تناول فيه اهم الموضوعات التي يحتاج اليها المسلم واشتمل على خمسة ابواب الاول في العقائد والثاني في الآداب والثالث في الاخلاق والرابع في العبادات والخامس في المعاملات وطالب العلم الذي لم يستأنس بعد بكتب الفقه الاسلامي واصطلاحاتها يحسن به أن يبدأ بقراءة هذا الكتاب دون ان يقتصر عليه ، فانه سيتعرف من خلاله على ابواب الفقه الاسلامي وسيتعود على طريقة السلف في اخذ الحكم بدليله من الكتاب والسنة ، وسيقف على أمور عملية كثيرة تتصل بالابواب الخمسة السابقة ، قصد التطبيق ، فليأخذ بها ليجمع بين العلم والعمل وذلك هو الفقه .

١١ - « فقه السنة » للسيد سابق في ثلاثة مجلدات ، وهو مثل منهاج المسلم في موضوعه غير أنه أوسع ، ومنهجه في عرض القضايا الفقهية هو ذكر الدليل والاجتهاد في الترجيح ، وقد اعتمد مؤلفه على الكتب التي الفت في الفقه بهذه الطريقة كنيل الاوطار للشوكاني والمغنى لابن قدامة وغيرهما ، فالذين يجدون صعوبة في قراءة هذه الأخيرة يجدون فقه السنة ابسط وايسر لان مؤلفه كتبه بالأسلوب السائد في كتابة هذا العصر .

ورغم تمسك المؤلف بالدليل ، وعدم تقيده بمذهب واحد من المذاهب فان الكتاب لا يخلو من اجتهادات مرجوحة لكنها لاتنال من قدر الكتاب ولاتبلغ أن تصرف طالب العلم عن قراءته ، ولهذا يحتاج طالب العلم الى النظر في كتاب تمام المنة في التعليق على فقه السنة للشيخ ناصرالدين الالباني وقد علق فيه على مسائل من المجلد الاول (قسم العبادات) بعد ان اثنى على الكتاب في مقدمة تعليقه وذكر أنه كان من أوائل الكتب التي كان يوصي بقراءتها .

١٢ - « الحلال والحرام في الاسلام » للدكتور يوسف القرضاوي ، وموضوعه بيان الحلال والحرام في الاسلام ، وقد الفه مؤلفه بلغة ميسرة ، واعتمد فيه منهج الترجيح بين الاقوال استنادا الى قوة الدليل ، وقسم الكتاب الى اربعة أبواب ، ذكر في الباب الاول مبادئ الاسلام في شأن الحلال والحرام ، وفي الثاني الحلال والحرام في الحياة الشخصية للمسلم وفي الثالث الحلال والحرام في الزواج وحياة الاسرة ، وفي الرابع الحلال والحرام في الحياة العامة للمسلم.

وقد قام الشيخ ناصرالدين الالباني بتخريج احاديثه وطبع في جزء مستقل بعنوان « غاية المرام في تخريج احاديث الحلال والحرام »

وقد انتقد بعض العلماء على الكتاب اشياء خالف فيها وجهة نظرهم

وجمع بعضهم تلك الانتقادات في مؤلف مطبوع ، ولا بأس بالاطلاع عليها للوقوف على رأيهم ، وكلها في مسائل عرفت في الفقه الاسلامي من قديم بكونها قضايا خلافية ، وما ذكره الدكتور في كتابه ليس ملزما للقارئ فيمكن أن يستفيد منه أمورا ، ويخالفه في أخرى اذا اطمأن الى اجتهاد غيره فيها .

١٣ - « الرحيق المختوم » في السيرة النبوية للشيخ صفي الرحمان المباركفوري وهو جزء واحد اختصر فيه مراحل السيرة النبوية ، ويمتاز الكتاب بالتحقيق العلمي لكثير من أحداث السيرة ، والترجيح بين الاقوال المختلفة كما أنه يضم تعليقات واستنباطات جيدة على هامش الاحداث وقد حصل المؤلف بكتابه هذا على الجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الاسلامي سنة ١٣٩٧هـ وهو يفيد طالب العلم الذي يدرس السيرة النبوية لاول مرة ، لانه يجمع له مراحلها بشكل موجز ومفيد ، وبالتالي يكون مقدمة لأي دراسات أخرى عن السيرة النبوية .

١٤ - « رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين » للامام النووي ، وهو كتاب تربوي أخلاقي جمع فيه مؤلفه رحمه الله جملة صالحة من الاحاديث وبوبها في أبواب مختلفة تتناول موضوعات اخلاقية بالاساس . وقد القى الله عليه القبول فتداوله المسلمون عبر العصور ، ولا يزال يحتفظ بمكانة خاصة بين كتب الحديث المختصرة .

١٥ - « جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم » ألفه الإمام ابن ابن رجب الحنبلي وشرح فيه خمسين حديثا من امهات الاحاديث النبوية التي عليها مدار الدين ، أربعون منها ذكرها الامام النووي في الاربعين النووية ، وهو احسن شرح لها .

١٦ - « صفة صلاة النبي من التكبير الى التسليم كأنك تراها »

للشيخ ناصر الدين الالباني : ورغم ان فقه الصلاة مذكور في مواضعه من كتب الفقه المتقدمة كمنهاج المسلم وفقه السنة ، ولكن هذا الكتاب يختص ببيان هذه العبادة المتميزة ويحقق القول في أعمالها من التكبير الى التسليم . فقراءته ضمن هذه المجموعة الاولى في محله .

١٧ - « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للاستاذ ابوالحسن الندوي وهو كتاب يعرض محاسن الاسلام من طريق التجربة التاريخية حيث يعرض واقع العالم قبل ظهور الاسلام ويتحدث عن التحول الهائل الذي أعقب مجيئه ، ويتحدث بعد ذلك عن الانجازات العظيمة التي حققها المسلمون تحت راية هذا الدين ، الى ان يصل لمرحلة الانحطاط حيث تخلى المسلمون عن رسالتهم وتولى غيرهم قيادة العالم فاصاب البشرية بسبب ذلك من المصائب والكوارث ما يشهد ان العالم لا يسعد إلا في ظل هذه الامة اذا تمسكت برسالتها الحقيقية رسالة الاسلام .

١٨ - « الكبائر » لشمس الدين الذهبي تعرض فيه رحمه الله للكبائر التي حرمها الاسلام بأسلوب مختصر وقد حققه وخرج أحاديثه الاستاذ الحسين أيت سعيد فقراءة الطبعة المحققة أفيد ، ومن اراد كتابا أوسع منه فليقرأ « الزواجر عن اقتراف الكبائر » لابن حجر الهيثمي .

١٩ - « هل نحن مسلمون » للاستاذ محمد قطب ، وهو كتاب صغير عرض فيه لمفهوم الاسلام ونماذج من المجتمع المسلم ، ثم تتبع خط الانحراف عن الاسلام في الامة واسباب هذا الانحراف المحلية والعالمية ثم تحدث عن المستقبل وانه لهذا الدين .

٢٠ - « سبل السلام شرح بلوغ المرام » وهو كتاب في الفقه في اربعة أجزاء شرح فيه الامير الصنعاني بلوغ المرام من ادلة الاحكام لابن حجر

العسقلاني وهو نموذج آخر لكتب الفقه المبوبة على أبواب الحديث ، وفيه يتعرف طالب العلم على أهم ابواب الفقه ويطلع على موضوعاتها حتى اذا احتاج إلى مراجعة أحد تلك الموضوعات تذكر مكانه وموضعه ، ومعلوم أن الاحكام الفقهية لا ترسخ بادلتها في الذهن عند قراءتها مرة واحدة ، ولذلك فان قراءة منهاج المسلم وفقه السنة وسبل السلام ضمن هذه المجموعة الاولى معناه المرور على المباحث الفقهية ثلاث مرات بأساليب مختلفة في التناول والعرض .

هذه المجموعة الاولى قابلة للاضافة لان المقصود بها هو حصول العلم بالقدر الضروري من الدين الذي يحتاجه المسلم في يومه وليلته ، أما التوسع في العلم فلا حد له ولذلك يعد طالب العلم عند فراغه من هذه المجموعة الاولى لائحة بأسماء كتب أخرى تضمها مجموعة ثانية .

المجموعة الثانية :

هذه المجموعة الثانية ستكون اوسع من الاولى ، ولهذا لن تكون قائمة منتقاة من المكتبة الاسلامية ، وانما ستكون مجموعة من اللوائح بحسب العلوم الاسلامية التي يرغب طالب العلم في دراستها ، وستكون هذه اللوائح مفتوحة لاضافة اي كتاب مفيد في موضوعه ، وهكذا تكون لائحة للتفسير وعلومه واخرى للحديث وعلومه واخرى للفقه واصوله ورابعة للتاريخ والسيرة وخامسة لعلوم العربية وسادسة للدراسات المعاصرة وسابعة للفرق والمذاهب وهكذا . وهذا يتطلب معرفة ما كتب في كل علم ويتأتى ذلك لطالب العلم من تردده على المكتبات واطلاعه فيها على عناوين الكتب أو من قراءته للكتب التي عرّفت بالمكتبة الاسلامية وهي للاسف قليلة ونذكر منها على سبيل المثال :

١ - « دليل الثقافة الاسلامية » للاستاذ محمد رياض ذكر فيه جملة صالحة من المصادر والمراجع في مختلف فروع الثقافة الاسلامية ، واعتنى بذكر

المطبوع منها خاصة ، وفي هذا الكتاب نجد عناوين كتب أخرى تعرف بالمصادر والمراجع الاسلامية

٢ - « ثقافة الداعية » للدكتور يوسف القرضاوي ذكر فيه ستة أنواع من الثقافة يحتاج إليها الداعية هي الثقافة الاسلامية والواقعية والانسانية واللغوية والادبية والعلمية وذكر في كل نوع جملة من الكتب .

٣ - « جند الله ثقافة واخلاقا » للاستاذ سعيد حوى وقد خصص الجزء الاول منه للثقافة وذكر فيه مجموعة من العناوين في مختلف فروع الثقافة الاسلامية .

وهذه الكتب تقترح عناوين دون ان تحكم عليها تفصيلا ، وبعبارة اخرى فهي تذكر بعض ما ألف في كل علم من علوم الاسلام دون ان تفصل القول في مضمون كل كتاب ، فذكرها لكتاب ما ليس تزكية له ، ولهذا على طالب العلم أن يسأل عن الكتب التي يختارها للقراءة ليعرف اذا كان من أهل العلم من حققها أو خرج احاديثها أو انتقدها ، فالمكتبة الاسلامية ليست جامدة ولكنها تعرف بعد كل فترة مجموعة جديدة من الكتب ، وطبعات جديدة لكتب معروفة ، وطالب العلم يجب أن يكون وثيق الصلة بالمكتبات واهل العلم .

ثالثا - وضع البرنامج

ان وضع برنامج اليوم والاسبوع والشهر والسنة والعمر ، امر لا غنى عنه للمسلم الذي يريد استكمال ثقافته الاسلامية في أقصر وقت ممكن لأن التحصيل العلمي والتثقيف الذاتي ليس من الامور المحببة للنفس ، بل هو ثقيل عليها تتبرم به وتتنصل منه ما وجدت الى ذلك سبيلا.

إن وجود البرنامج ضروري لأنه يشعر صاحبه بالتقصير الدائم ، ويحثه

على المزيد من الحزم في تنفيذ ما تضمنه من أعمال .

وليست هناك خطوة تتلو اعداد قوائم الكتب سوى وضع البرنامج المناسب ، وهذا البرنامج لا يكون خاصا بحصص القراءة فحسب بل يكون شاملا لكل نشاطات اليوم حيث تأخذ حصص المطالعة اماكنها فيه مع بقية الاعمال الاخرى .

وكل برنامج لابد أن يضم جملة من الثوابت ، وجملة من المتغيرات ، ويراعى في اعداد البرنامج ما يلي :

١ - أن يتم تفكير عميق في النية التي توجه القلب لادراج عمل معين في البرنامج ، فإذا استقر على نية صالحة فلينظر في حكمه الشرعي ، فاذا كان عملا صالحا وصحت فيه النية فليأخذ مكانه في البرنامج حينئذ ، وانما بدأنا بهذه الملاحظة لان ما يوضع في البرنامج سيتكرر مدة طويلة فلابد من التثبت من النية المصاحبة لذلك العمل والحكم الشرعي الذي يأخذه في الاسلام .

٢ - أن يضع برنامجا شاملا يستوعب اكبر قدر من أعمال الخير ، حتى ينسب إلى تلك الصالحات كلها وينادى عليه بها يوم القيامة .

٣ - أن يجعل البرنامج إجباريا في حياته ، مهما تكن الظروف والعوائق التي تعرقل تطبيقه فكل البرامج معرضة للتعطيل والمخالفة ، ولكن وجود البرنامج له فائدتان ، أولاهما - أنه يقود المسلم لما ينبغي فعله عندما تكون الظروف مواتية ، والثانية انه ينال أجر النية ان فاته انجاز العمل في وقته فمن منعه سفر أو مرض من عمل كان يعمله كتب له اجره كما لو كان صحيحا مقيما ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة .

ليضع المسلم برنامجا لكل مرحلة من حياته ، وليفسح فيه مكانا لما استطاع من أعمال الخير، ثم ليعمل على تحقيق ما تيسر له منها .

٤ - ان للظروف التي يعيش فيها الانسان دورا كبيرا في مساعدته أو إعاقته عن وضع برنامج يناسب طموحاته ، فليجتهد في تقويم هذه الظروف وليضع برامجه على ضوء ذلك .

٥ - كل برنامج جديد يضعه طالب العلم يجب أن يكون هدفه المشترك مع بقية البرامج السابقة هو إعداده ليكون قدوة في العلم والتربية والجهاد وكل برنامج لاتأخذ فيه هذه الثلاثة ما تستحقه من اهتمام برنامج غير تام ، وإذا توالت البرامج الناقصة ظهر النقص في الجانب الذي كان محط إهمال .

٦ - أن يقسم البرنامج حسب الساعات لاحسب المواد ، ويضع برنامجا شاملا لكل الأسبوع بلا استثناء ، اي من الافاقة إلى النوم .

٧ - ان يذكر مواد البرنامج بأسمائها والا يترك الأمور مبهمة حتى يعرف بسهولة نشاط كل ساعة من ساعات الاسبوع طويلة في فترة متواصلة .

٨ - أن يباعد بين ساعات المطالعة ، ويفصل بينها ، ولا يجمع ساعات طويلة في فترة متواصلة .

٩ - أن يضع برنامجا معتدلا ، ويتجنب البرامج المثالية التي تفشل عند التطبيق .

١٠ - أن يحدد لكل برنامج اجلا تنتهي عنده صلاحيته ، فيجدد له مدة أخرى أو يستبدل به غيره ، ويمكنه أن يعتمد ثلاثة اشهر متوسطا لتجديد صلاحية البرامج أو تغييرها .

١١ - أن يحضر ورقة كبيرة ذات مربعات صغيرة فيسطرها حسب ساعات اليوم وايام الاسبوع ، تكون الايام عموديا والساعات أفقيا (انظر النموذج) .

١٢ -ان يملأ حصص الاعمال الثابتة مثل الصلوات وورد القرآن والذكر

والرياضة والاكل والنوم وحصص الدراسة .

١٣ - ان يملأ بقية الحصص ، ويخصص للمطالعة ساعاتها الكافية في الاسبوع .

١٤ - ان يعتبر البرنامج بعد اعداده قابلا للتعديل بعد اسبوع أو اسبوعين من التطبيق ، ولهذا يحسن كتابته بقلم الرصاص .

١٥ - أن يعرض البرنامج على التطبيق ، وينتظر أسبوعا ثم ينقحه بعد ذلك ، وعندما يجري التعديلات بجمعها ويدخلها على البرنامج دفعة واحدة ، وحتى لا تكثر التعديلات يوضع البرنامج بعد تفكير طويل ومراجعة للبرامج السابقة ومراعاة للظروف المحيطة .

١٦ - ان يضع لنفسه فترات استراحة بين حصص المطالعة ، والأفضل أن تكون على رأس كل ساعة .

١٧ - ان يكتب في ظهر الورقة التي سطر فيها البرنامج كل التفصيلات المتعلقة بمراده والتي لم يمكن كتابتها في صُلبه .

١٨ - ان يركع ركعتين يدعو بعدهما بدعاء الاستخارة بين يدي العمل بهذا البرنامج حتى يختار الله له الأحسن والافضل في دينه ومعاشه وعاقبة أمره.

رابعا - تقنيات القراءة الجيدة :

إذا وضع البرنامج ، وشرع في تنفيذه يكون نصف المهمة قد أنجز ، ويبقى النصف الأخر وهو حسن التنفيذ ، وبما أن لقراءة الكتب تقنيات تعين على جودة الاستفادة ، سنشير الى بعضها فيما يلي :

١ - أنواع القراءة :

إن قراءة أي كتاب إما أن تكون قراءة علمية أو قراءة فضولية ،

	٦-٥	٧-٦	٨-٧	٩-٨	١٠-٩	١١-١٠	١٢-١١	١-١٢	٢-١	٣-٢	٤-٣	٥-٤	٦-٥	٧-٦	٨-٧	٩-٨	١٠-٩	١١-١٠	١٢-١١	ملاحظات
الجمعة																				
السبت																				
الأحد																				
الاثنين																				
الثلاثاء																				
الأربعاء																				
الخميس																				

فالقراءة العلمية هي القراءة الهادفة التي يرمي القارئ من ورائها إلى أهداف علمية واضحة ، والقراءة الفضولية هي القراءة المتقطعة التي لا يقصد منها القارئ سوى تزجية الوقت وملء الفراغ ، ثم إن القراءة العلمية إما أن تكون قراءة مع التلخيص أو قراءة مع الاقتباس أو قراءة مع الغير أو قراءة مجردة .

أ - القراءة مع التلخيص : تصلح هذه الطريقة لقراءة الكتب التي لا يقصد من قراءتها استخراج معلومات محددة ، وإنما يقصد من قراءتها الاطلاع على محتواها وتركيز أفكارها الأساسية بعد الفراغ من مطالعتها وجمع هذه الأفكار في ملخص .

ويتم تلخيص الكتاب في أوراق خاصة أو في دفاتر ، ويكتب على الورقة الأولى : ورقة الدليل ، وفيها يسجل اسم الكتاب والطبعة وتاريخها ، ومؤسسة النشر ، ورقم الطبعة ، وفي الورقة الثانية تسجل عناوين الفهرست الذي في آخر الكتاب .

وتبدأ قراءة الكتاب بقراءة المقدمة ثم الفهرست ، ويقلب القارئ صفحات الكتاب ، ويقرأ بعض العناوين والسطور لأخذ فكرة مجملة عنه ، ثم يلقي بعد ذلك نظرة مجملة على الفصل الأول مع الانتباه أكثر للعناوين لأنها تعطي فكرة عن هيكل الكتاب على ما رتبه مؤلفه ، كما أنها توضح الموضوع الرئيسي في كل فصل .

وعندما يتم الشروع في قراءة الفصل ينبغي ملاحظة الكلمات والجمل المكتوبة بلون بارز ، وكذلك العناوين الهامشية ، وينبغي التأكد انها قد فهمت جيدا ، وليكن القصد عند قراءة الفصل الوقوف على الفكرة الاساسية في كل فقرة ، والقراءة الغزيرة هي التي تكسب القارئ القدرة على التمييز بين الاساسي والثانوي في فقرات الكتاب .

وهذه القراءة الأولى لا تكفي عادة ، ولذلك ينبغي أن تتبعها قراءة ثانية يرافقها حينئذ تلخيص المهم من افكار الفصل ، وفي التلخيص يمكن الاستغناء بأسلوب القارئ كما يمكن الاستعانة بلغة الكاتب .

وعند التلخيص يجب الانتباه بعد الافكار الرئيسية للتفاصيل المهمة ، وهي الأمثلة والحقائق التي يسوقها المؤلف لشرح الأفكار الأساسية والبرهنة عليها ، ويمكن اعتبار التفاصيل التي يؤكد عليها المؤلف هي التفاصيل المهمة غالبا وهناك سؤالان يمكن البحث بهما عن هذه التفاصيل المهمة هما هل هذا خير مثال يوضح الفكرة الأساسية ؟ أو هل هذا خير برهان عليها ؟ . فاذا سجل القارئ في ملخصه تفصيلا لكل فكرة اساسية فهذا ملخص نموذجي وهناك من يفضل قراءة الفصل وإعادته ثم إغلاق الكتاب ، وكتابة الملخص من غير نظر في الاصل ، وفي هذا ترويض للذهن على الانتباه والاستيعاب عند القراءة ، لكن إن فاته شيء نظره في الكتاب .

وبالممارسة يتقلص حجم التلخيصات عند الطالب ، ويتعلم حسن الانتقاء فقد يلخص الكتب الأولى في حجم كبير ثم يلخص التي بعدها في حجم أقل حتى يقوى على جمع أفكار الكتاب الضخم في العدد المحدود من الصفحات .

والقراءة مع التلخيص أصعب وأبطأ من القراءة العابرة ، ولكن صعوبتها وبطءها لا ينبغي أن تمنع الطالب من تفضيلها على الأخرى ، فالقراءة مع التلخيص تساعدنا على تذكر معلومات الكتاب ، والاحتفاظ بأهم أفكاره مدونة في اوراق أو بطاقات ، متى احتجنا إليها لم نلجأ إلى قراءة الكتاب من جديد ، ومن كلمات الأديب عباس محمود العقاد : إني أفضل أن أقرأ كتابا واحدا ثلاث مرات على قراءة ثلاثة كتب مرة واحدة .

ب - القراءة مع الاقتباس : وتستعمل هذه الطريقة عندما يكون المقصود من مطالعة الكتاب هو جمع معلومات معينة عن موضوع ما ، وهذه الطريقة هي الأكثر استعمالا ، والكتب تصلح للطريقتين معا لكن معظمها أنسب للطريقة الثانية ، ولهذا لابد لطالب العلم أن يضع لنفسه مشروعات بحوث في مختلف العلوم الاسلامية ، ويجعل قراءته للكتب في هذه العلوم من أجل جمع المادة العلمية لتحرير هذه الأبحاث .

وليس لازما أن يعد طالب العلم هذه الأبحاث في إطار دراساته الجامعية أو العليا ، بل يحدد لنفسه موضوعات ويعمل على جمع مادتها العلمية أثناء مطالعاته وقراءاته ، فإن هذه الموضوعات تقوده في القراءة وتنظم مقروءاته في كل علم ، وعلى سبيل المثال يمكن أن يحدد الموضوعات التالية ويضع لكل واحد منها تصميما يقوده في جمع المادة العلمية ، ولا عليه إن طال زمن جمعها شهورا أو سنوات ، فالمهم أن عنده موضوعات كلما وقف على معلومة تنتمي إلى أحدها دونها وضمها إلى المعلومات المنتمية لذلك الموضوع ، حتى إذا اجتمع عنده من البطاقات العلمية ما يكفي لتحرير ذلك الموضوع حرره في صورة مذكرة أو بحث أو محاضرة أو عرض أو رسالة جامعية (إن كان سجل موضوعها في اطار دراسته النظامية) ، ومن هذه الموضوعات المقترحة مثلا :

١- العقيدة في الإسلام
٢- العبادات في الإسلام
٣- من هدي السلف الصالح
٤- الأخلاق والآداب في الإسلام
٥- المعاملات في الإسلام
٦- نحو ثقافة إسلامية

٧- من فقه الدعوة

٨- الأسرة في الإسلام

٩- صفحات مشرقة في تاريخنا

١٠- تراجم إسلامية .

هذه العناوين وأمثالها تكون أبحاثا مفتوحة تنمو بطاقاتها مع تقدم الطالب في القراءة والمطالعة ، وقد تصير فيما بعد محاضرات ودروسا ومؤلفات يلقيها أو ينشرها في الناس .

هذه الطريقة في القراءة تحتاج من طالب العلم أن يتعرف في وقت مبكر على تقنياتها العلمية ، وللأسف فإن منهجية القراءة والبحث تتأخر في مقرراتنا الجامعية إلى السنة الرابعة عندما يواجه الطالب بإعداد بحث الإجازة ، بينما الواجب أن يتعرف على هذه المنهجية في بداية المرحلة الثانوية فيعرف كيف يعد بحثا أو محاضرة ، وكيف يتعامل مع المصادر و المعاجم فإذا التحق بالجامعة واصل مطالعاته وابحاثه وزاد استقلاله بالقراءة والاقتباس والتحرير ، وقد الفت بعض الكتب في منهجية البحث نذكر منها كتابين على سبيل المثال :

الأول - « كيف تكتب بحثا أو رسالة » للدكتور احمد شلبي وهو رسالة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

والثاني - « كيف تكتب بحثا أو منهجية البحث » للدكتور إميل يعقوب في نفس الموضوع .

ويجد طالب العلم في هذين الكتابين خطوات البحث العامة ، وهي خطوات تصلح للأبحاث الإسلامية ، وبصفة عامة فإن البحث قبل أن يأخذ صورته النهائية في شكل مقال علمي أو محاضرة أو كتاب أو رسالة جامعية يمر بمجموعة من الخطوات هي باختصار :

- اختيار البحث وتحديد عنوان واضح بجمع موضوعه .

- وضع تصميم أولي للبحث بناء على قراءات عامة عنه وأبحاث سابقة في موضوعه ، وهذا التصميم الأولي عبارة عن أبواب وفصول تقود عناوينها الباحث عندما يجمع مادة بحثه .

- إعداد لائحة المراجع ، ويجمع هذه اللائحة من مصادر الموضوع ومراجعه وتبقى مفتوحة لإضافة كتب جديدة لها صلة بالبحث .

- الشروع في قراءة هذه المراجع والوقوف عند كل ما يتصل منها بالبحث لنقله حرفيا في بطاقات خاصة . وهذه هي عملية الجمع أو التقميش .

- ترتيب هذه البطاقات وإعادة النظر فيها وتوظيف معلوماتها لتحرير البحث .

- تحرير البحث في صورته الأخيرة .

ولكل خطوة من هذه الخطوات تفصيلات يجدها الطالب في المرجعيين المتقدمين مثل علامات الترقيم وكيفية كتابة الهوامش وكيفية إعداد الفهارس الفنية وتخريج الآيات والأحاديث ، وبعض هذه التفصيلات عامة للبحوث كلها وبعضها خاص بالرسائل الاكاديمية ، وبكل حال فقراءة هذه الكتب المنهجية منذ البداية وبعد إعداد لرائع الكتب مهم جدا ، وهو الذي يصون الطالب من الطرق الرديئة في القراءة والتحصيل ، ويطلعه على الطرق المتعارف عليها في البحث والتأليف .

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي في كتابه السابق ثلاثة أنواع من القراءة داخل هذه الطريقة الثانية أعني القراءة مع الاقتباس ، يحسن أن ننقلها هنا ، يقول : (٣٣)

« ١ - القراءة السريعة : وتكون بقراءة الفهرس قراءة فاحصة ،

ويختار الطالب من الفهرس ما يمس موضوعه من قريب أو من بعيد ، ففي هذه المرحلة ، يكون تحديد الموضوعات التي ستقرأ هو الهدف الأساسي للاطلاع ، ويدخل في هذه المرحلة كذلك التعرف على الكتاب بقراءة بعض موضوعاته أو فصوله قراءة سريعة يحدد الطالب بها قيمة الكتاب على العموم ، فقد تكون الموضوعات بالفهرس جذابة ، ولكن يكون الحديث عنها في صلب الكتاب سطحيا أو ضحلا ، وعلى هذا فالطالب في هذه المرحلة يستبعد بعض الكتب نهائيا لهبوط مستواها أو لعدم صلتها بموضوعه ، ويختار من بعض الكتب موضوعات محددة يؤمل أن تكون مفيدة لبحثه » .

« ٢ - القراءة العادية : وفي هذه المرحلة يقرأ الطالب الموضوعات التي حددها للقراءة في بعض الكتب ، ويختار منها الاقتباسات التي تتصل بموضوعه » .

« ٣ - القراءة العميقة : هناك أبحاث ممتازة وثيقة الصلة بالموضوع ، وهذه ينبغي أن يقرأها الطالب بتؤدة وعمق ، وعليه أن يتمثلها ، ويستفيد بها في تكوين فكره وتطويره ، وأن ينتفع باتجاهاتها ، وربما كان عليه أن يعيد قراءتها وأن يعيش معها ، وأن يقتبس منها ما ينير له السبيل » .

ج - القراءة مع الغير : وكانت هذه الطريقة شائعة في المؤسسات العلمية الإسلامية إذ لم يكن طلاب العلم يقرأون الكتب على انفراد ، لأنها كانت مخطوطة تحتاج إلى ضبط ، فكان الطالب إذا اقتنى كتابا ، أو استنسخه سأل عن مؤلفه ورحل اليه ليقرأه عليه فإن لم يصل إلى مؤلفه لتقدمه الزمني أو بعده الجغرافي سأل عن تلاميذه ممن قرأوا عليه الكتاب فيقرأ الكتاب على أحدهم ، ولذلك كان لطلاب العلم إسناد في الكتب وإجازات ، وإذا ترجم أحدهم لنفسه ذكر الكتب التي قرأ والشيوخ الذين قرأ عليهم تلك الكتب ،

وهذا ليس معناه أنهم لم يكونوا يقرأون الكتب إلا على الغير ، فقد يقف الطالب على الكتاب فيقرأه على انفراد ، إذا كان متمكنا قادرا على ضبط ألفاظه وفهم معانيه ، ولكن وبسبب أن الكتب كانت مخطوطة ويقع الوهم والغلط في النسخ ، والغموض في الأحرف والكلمات لم يكونوا يثقون في القراءة المنفردة ، ويفضلون قراءة الكتاب على الشيخ الذي ألفه أو على أحد تلاميذه أو على من تمرس به ، وعرف بتدريسه وشرحه للطلاب .

ولاشك أن قراءة الكتاب مع الغير سواء كان هذا الغير أستاذا أو طالب علم تفيد في بعض الجوانب ما لاتفيده طرق القراءة الأخرى لأنها مذاكرة وتعلم وتعليم واختبار للمعلومات ، وتدريب على المحاورة والمناقشة .

غير أن لها مع تلك الفوائد آفات ككثرة الاستطراد والبطء في القراءة ، وضعف التركيز ، وكلها آفات يمكن التغلب عليها بالإقبال على المقروء ، ومقاومة الشواغل والاستطرادات التي تصرف عن صلب الموضوع .

د - القراءة المجردة : وهي التي لا يكون معها تلخيص أو اقتباس ، وتوجد الكتب والمقالات التي تناسبها هذه الطريقة .

ولانستطيع أن نفاضل بين هذه الطرق الاربعة ، لأن الكتب أنواع وكل طريقة تصلح لنوع دون آخر ، فربما كانت قراءة كتاب إسلامي معاصر تناسبه طريقة التلخيص لحسن تبويبه وترتيبه ، وآخر من كتب التراث تناسبه طريقة الاقتباس لأن موضوعاته متنوعة ، وكل موضوع منها يصلح مادة علمية لبحث مستقل ، وثالث تناسبه طريقة القراءة مع الغير إذا كان كتابا مختصرا في الحديث أو الفقه أو كان من الكتب المعتمدة في الدراسة بالمدارس والجامعات الإسلامية ، ورابع تناسبه القراءة المجردة كالمقالات الصحفية والروايات والمسرحيات على سبيل المثال .

٢ -السرعة في القراءة :

مبدأ الاقتصاد في الوقت مبدأ عام في الحياة ، وعليه براهن أصحاب المشروعات المختلفة ، والمسلم أولى من غيره بهذا التعامل الحازم مع اللحظة الزمنية .وعندما يستعمل الانسان لغة الاحصاء يكتشف أن توفير الوقت القليل وضمه إلى مثله يعطي بعد مدة وفرا هائلا لا يتوقعه صاحبه .

وفي مجال القراءة خاصة يأخذ الاهتمام بالوقت وحسن استغلاله أهمية لاحد لها ، وباستعمال طرق جيدة في القراءة يمكن توفير وقت اضافي كبير ترتفع به عدد الصفحات المقروءة في زمن ما .

الاسراع في القراءة إذن يوفر الوقت ، ولذا وجب على طالب العلم أن يتعود عليه من البداية ، وحتى تكون القراءة سريعة ينبغي أن تكون بالعين والقلب من غير صوت ، فالذي يرفع صوته عند القراءة أو يحرك بها شفتيه قارئ بطيء .

إن الانسان يتكلم بسرعة تتراوح بين مئة ومئة وخمس وعشرين كلمة في الدقيقة ، والقارئ المجيد يجب أن يقرأ مئتي كلمة أو أكثر في كتاب صعب المادة ، وقد تبلغ سرعة قراءته ستمئة كلمة في الدقيقة في كتاب سهل المادة .

ومما يعين على الإسراع في القراءة التركيز والكف عن العبث باليدين ، وإذا كنت تقرأ فحاول أن يستوعب بصرك أكثر من كلمة في اللمحة البصرية الواحدة .

٣ - الأوضاع البدنية عند القراءة :

خير مكان للمطالعة هو المنضدة ، فقد صممت لذلك ، والمنضدة الخالية أفضل من التي تحشر فيها الصور والأدوات ، فذلك يبعث على احلام اليقظة ويشوش الذهن .

ومع إفراغ المنضدة من كل الكتب والمذكرات والادوات التي لاتتعلق بالموضوع الذي أنت فيه ، يجب أن تجلس جلسة صحية مريحة ، وان تشد عضلاتك وتكون يقظا مستقيما ، ولاتقم إلى فراش النوم الا بعد الفراغ من العمل العلمي ، أما الكتب فرتبها في رفوف خاصة ليسهل عليك استخراجها عند الحاجة .

٤ - **المطالعة بين التكلف والهواية :** الجلوس الى المنضدة ، والعكوف على القراءة ، وتعويد النفس على ذلك من غير كلل ولا ملل ، خطوة تنفيذية لازمة لإنجاح أي خطة عملية ، والعادات تكتسب بالتكرار والاصرار ، خاصة إذا كانت هذه العادات على عكس مراد النفس ، وحبس النفس على المطالعة ساعات كل يوم أمر شاق ، إلا أن هذه المشقة تزول شيئا فشيئا عندما تتحول المطالعة الى هواية وميل .

قد يحتاج المسلم إلى فترة طويلة يتكلف فيها الجلوس الى المطالعة ويحمل نفسه على ذلك ، لكنه بعد مدة يجد أن الملل قد خف شيئا فشيئا بل يجد أن المطالعة تحولت لديه الى هواية يقبل عليها بشوق وشغف ، وينفق فيها الساعات من غير ضجر ، بل يصير الى حالة لو أراد من نفسه مفارقة الكتاب لايستطيع ، وعندما تتحول القراءة في حياته الى هواية محببة تهون عليه تلك اللوائح التي اعد للقراءة ، ويبقى الكتاب انيسه حتى يفارق الدنيا .

٥ - **التغذية الصحية والوقاية من الأمراض :** المرض عائق في وجه البرامج التي يخطتها طالب العلم لنفسه ، والأمراض لاتنحصر ، فكل عضو من أعضاء الجسم عرضة للاصابة بأمراض كثيرة ، والمرض قدر من الله ، ولكنه ينشأ عن أسباب وطالب العلم حتى يتمتع اثناء تحصيله للعلم بصحة عقلية وجسمية تساعده في انجاز برامجه يجب أن يمتلك ثقافة طبية ويعيش

على عادات صحية في نومه وطعامه وشرابه ، وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا أحسن الهدي ، فقد كان صلى الله عليه وسلم معتدلا في شأنه كله، وقد ذكر ابن القيم في كتاب الطب النبوي طرفا من هذا الهدي فيحسن بطالب العلم أن يقرأ هذا الكتاب ، ويضم إليه كتبا طبية معاصرة ليدعم ثقافته الطبية ، فيعرف مكونات الأطعمة وفوائدها والاضرار التي تنجم عن تناول بعضها والاسراف في تناول بعضها الآخر وماهو حد الاعتدال التي أمرت به الآية الكريمة التي قال الله فيها : « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين » (الأعراف/آية ٣١) ، فقد أصبح حد الاعتدال معروفا للأطباء تبعا لنوع النشاط الذي يقوم به الفرد خلال اليوم ، وقد أودع الله سبحانه في الدماغ البشري مراكز للجوع والشبع والعطش والري ، وهي موازين فطرية يكملها الإنسان بعلمه المكتسب .

يقول الشيخ بدرالدين بن جماعة :

« وأعظم الموانع ولاشك - يقصد موانع التحصيل - الانشغال بفضول الطعام والشراب ، فكثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب ، وكثرة النوم ، والبلادة ، وفتور الحواس ، وكسل الجسم ، وكثرة التردد إلى الخلاء ، والاسقام ، ولم يوصف العلماء بكثرة الأكل قط ، ولم يحمدوا بذلك، وانما تحمد به الدواب التي لاتعقل ....

« فكثرة الأكل والشرب والنوم ثلاثة أعداء لطالب العلم يصدونه عن مقصوده » (٣٤)

وبالاضافة إلى الاعتدال في الأكل والشرب والنوم ، تصان الصحة وتحفظ بالرياضة ، فلا غنى لطالب العلم عن حصص من الرياضة تأخذ مكانها في برنامجه الاسبوعي ، وتكون عونا على بقية مواده ، والرياضات أنواع ،

وأفضلها الذي يقوي سائر عضلات الجسم ، والمواظبة على الرياضة وممارستها بشكل جدي يحتاج إلى الجماعة والمدرب .

وقد ذكر العلماء المسلمون الذين كتبوا في موضوع التعلم أهمية الرياضة في الحفاظ على سلامة الجسم والعقل ودورهما في تأخير هرم أجهزته (٣٥) وأكدت الأبحاث العلمية الحديثة ذلك ، والأمر أظهر من أن يستدل عليه ، وأقل مراتب الرياضة المشي على الأقدام مسافات طويلة لمقاومة الخمول الذي يستدعيه الجلوس الطويل والنظر في كتب العلم ، والاشتغال بالحفظ ، فنشاط طالب العلم نشاط عقلي وحركة جسمه فيه محدودة ، ولذلك تتأكد في حقه الرياضة اكثر ممن يمارس الرياضة من خلال عمله كالفلاح والعامل والصانع مثلا.

٦ - **العطل والراحة الكافية** : لايخفى أن إرهاق الذهن وإتعاب الجسم بالقراءة المستمرة قد يأتي بآثار عكسية ، فينفر الطبع من القراءة جملة ، أو تضعف الملكة سريعا وهذا كله يدعو الى التعامل مع القدرات العقلية والجسمية المتوفرة باعتدال ، وكل امرئ خبير نفسه ، فليتخذ لها أوقاتا للراحة ، تبدأ بالدقائق التي يستريح بها بين كل ساعتين من ساعات المطالعة وتنتهي بالاستراحة الأسبوعية والفصلية والسنوية .

وقد أخذ النظام التعليمي الاسلامي بالعطل الأسبوعية والسنوية ، فكانت يوما أو يومين في الأسبوع ، وأياما أخرى في الأعياد الدينية السنوية ، كما أخذت النظم التعليمية المعاصرة بالعطل ، وأكدت علي دورها في تجديد نشاط الطلاب وان كانت البلدان مختلفة مخلفة في مواعيدها ومدتها .

وطالب العلم لا يأخذ بنظام العطل المتبع في الدراسة الرسمية ، ولكنه يأخذ بنظام خاص يقرره بنفسه سواء وافق بعض العطل الرسمية أم لا .

وفي فترات الراحة هذه يخفص من ساعات المطالعة والقراءة أو يؤجلها

وينصرف إلى أنواع اخرى من العمل المفيد ، فليست العطلة وقتا ضائعا ولكنه ينتقل من عبادة العلم الى عبادات أخرى يجدد بها نشاطه اذا عاد الى العمل من جديد .

وبعض الطلاب لا يجدون الفرصة لتطبيق برامجهم الخاصة بقراءة بعض الكتب وانجاز بعض الأبحاث إلا في العطل لأنهم خلال الدراسة مشغولون بالمقررات فينتظرون العطلة ليتفرغوا لبرامج خاصة بتكوينهم الاسلامي ، وهذا معناه أن العطل التي يأخذها طالب العلم المسلم لاتبلغ في أيامها كل هذه الأيام التي تشملها عطل المؤسسات التعليمية ، فالمشغوف بالعلم لا يحتمل كل هذه المدة عاطلا عن تحصيل العلم ، فلذته في مزيد من الطلب ، ولاتطيب نفسه إلا بالعودة لمحبوبه .

٧ - **تحديد مدة تقريبية لقراءة الكتب** : تحديد أجل معين لإنجاز المشاريع ، وتحديد آجال فرعية لإنجاز أجزاء منها ، أمر معمول به في عالم التخطيط ، ولو ترك الطالب لوائح الكتب للفرص والصدف لمرت به أيام وأسابيع وشهور قبل أن يبدأ ، وإذا بدأ جاءته الشواغل من كل جانب فيتعثر في السير أو ينقطع ، والعمر لا يتسع لهذا التعثر ، وخاصة أن أنسب فترة للتحصيل العلمي هي فترة الصغر ، وهي جزء من العمر سرعان ما تفوت ، فاعتماد التخطيط بأساسياته المشتركة ونقلها إلى ميدان التعلم متعدد الفوائد ، فلو حدد طالب العلم عددا معينا من الصفحات يقرأها كل أسبوع ويحاسب نفسه على قراءتها لكان حافزا له للتقدم في قراءة ما سجله من قوائم الكتب ، ولو اعتمد قراءة كتاب في كل شهر كذلك ، فيكون له ورد القرآن وورد الذكر وورد العلم .

ان تحديد مدة تقريبية لقراءة الكتب هو الذي يبعث في نفس الطالب

الحرص على الوقت ، لانه اذا أضاع يوما واحدا أو بعض يوم سيؤثر في برنامج السنة كلها ، ورغم أن العوارض قد تمنع من قراءة الكتب في الآجال التي حددت لها ، ولكن اعتماد آجال قصوى لقراءتها ضروري وعندما تتأخر القراءة عن موعدها يحدد موعد آخر .

٨ - **توفير الجو الصالح للتنفيذ :** الذي يضع الخطط ، ويحاول العمل وفقها يدرك مدى الصعوبة التي يجدها الإنسان الذي يريد السير على برنامج ، ويعرف حجم الموانع التي تعترض سبيله في ذلك ، وهذه العوائق والموانع تأتي من البيئة التي يعيش فيها ، والجو العام الذي يحيا فيه ، فكثيرا ما يكون جوا معاكسا غير مناسب ، وليس هناك حل جذري لهذا المشكل ، فيكون السعي لتعديل هذا الجو أو التكيف معه هو الحل المتيسر ، فيلتزم ببرامجه حسب المستطاع ، ويعدل من البيئة حوله أو يتوافق معها بما يسمح بالالتزام بالبرامج ، وهذا يحتاج إلى عزيمة صلبة ، قادرة على اتخاذ القرار ، والثبات عليه .

ومثال ذلك توزيع القراءة على أماكن مختلفة والتردد على المكتبات واستعمال البيت عندما يكون ملائما والمسجد عندما يكون ملائما ، والطبيعة عندما تكون مناسبة ، فلا يقتصر على مكان واحد إذا كان لا يتيسر له القراءة فيه في كل الأوقات .

٩ - **عند توقف العمل بالبرنامج :** يعرض لطالب العلم بين الحين والحين أغراض وأشغال مخالفة لما هو مسطر في البرنامج ، ويجد نفسه ملزما بقضائها ، أو تعرض له ظروف تمنعه من الاستمرار في تطبيق البرنامج ، وفي هذه الحالات عليه أن يوجه نيته في العمل الجديد ليكون عملا صالحا ، ولا يضره أنه ليس العمل الذي تعود القيام به في تلك الساعة ، لان غاية ما حصل أنه تحول عن عبادة إلى عبادة أخرى ، فإذا ارتفع العائق العارض

فليستأنف برنامجه من جديد .

وقد ذكر الامام ابن الجوزي [1] (ت ٥٩٧ هـ) عن نفسه في كتابه صيد الخاطر أنه كان يزجل بعض أعمال التأليف التي لاتتطلب تركيزا ذهنيا كترتيب الأوراق وتسطيرها وبري الأقلام وإعداد الحبر ...كان يحتفظ بمثل هذه الأعمال حتى إذا زاره الناس حدثهم وذاكرهم وشغل يديه في ذات الوقت بتلك الأعمال ، وكان قصده توفير الوقت الذي يكون فيه خاليا ، للمطالعة والتأليف .

١٠ - **مقارنة القراءة بالعمل** : اذا وقف طالب العلم على أمور عملية توقف ليسجلها في مذكرة خاصة بقصد العودة اليها وتطبيقها ، وهذه الأمور العملية كثيرة في كتب العلم الشرعي ، وهذا يحتاج منه إلى مذكرات ، بعضها لتسجيل الأمور العملية مثل الأدعية والاذكار والأحكام والنصائح والحكم والأمثال ونحوها ، وبعضها لتسجيل المسائل الغامضة قصد مراجعة أهل العلم فيها ، وبعضها لتسجيل الاشعار والاقوال المأثورة قصد حفظها وهكذا ، وقد ذكرنا قبل أن العلم يحفظ بالعمل .

١١ - **المحاسبة المستمرة** : لابد أن تدخل الأعمال العلمية ضمن المحاسبة العامة التي يختم بها المسلم يومه وأسبوعه وشهره وسنته ، وحتى تكون المحاسبة إيجابية ومضبوطة يجب أن تكون على أمور مقررة من قبل ، وهذه فائدة البرنامج ، فإنه مقياس عند المحاسبة يمكن به الوقوف على نسبة الانجاز ومعرفة الفرق بين المخطط والمنفذ ، أو النظرية والتطبيق ، وكما تكون المحاسبة على الماضي يكون التخطيط للمستقبل ، أي أن جلسة المحاسبة تكون هي نفسها جلسة وضع البرنامج أو تجديد صلاحيته وقد ذكر العلماء للمحاسبة ثلاث مراحل أساسية هي البرمجة قبل الفعل ، والمراقبة أثناءه والمحاسبة بعده .

الفصل الخامس

مفاهيم يجب أن تصحح

هناك عدة مفاهيم متصلة بموضوع العلم تحتاج إلى مراجعة وتصحيح ، لأن شيوعها له أثر سلبي على الواقع العلمي للمسلمين ونحن نذكر أمثلة منها تهم طالب العلم :

أولا - إن معرفة الضروري من العلم بالدين لا يحتاج إلى وقت كثير كما يتصور أكثر الناس ، وهب أنه يتطلب كل هذا الوقت ، أليس إسلام المرء متوقفا على هذا القدر من العلم ؟

إن تحصيل هذا القدر الواجب أمر لا يقبل التأخير ، فالعقل يضعف مع الأيام ، والنفس تفتر ، والغالب أن ما حصله المرء في مرحلة من عمره أرسخ مما حصله في مرحلة بعدها .

لقد كثرت الوصية في أقوال العلماء - شعرا ونثرا - باغتنام أيام الشباب ، فانها لاتدوم ، وان أحسن ما ينفق فيه أيامه طلب العلم :

بقدر الكد تعطى ما تروم ... ومن طلب العلا ليلا يقوم

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكون

وأيام الحداثة فاغتنمها ... ألا إن الحداثة لاتدوم

ثانيا - إن كثيرا من طلاب العلم يكتفون في دراسة الإسلام بما تلقوه في حصة التربية الإسلامية ، وحتى هذه الحصة يتعاملون معها كسائر مواد الامتحان ، وينقطعون عن دراسة الإسلام بمغادرة هذه الحصة .

وهذا وضع يجب تصحيحه ، وذلك أولا - بأن يعتبر الطالب ما تلقاه في

حصة التربية الإسلامية عبارة عن دروس منتقاة ولا تغطي كل موضوعات الإسلام واحكامه ، وثانيا - بأن يعتبر الامتحان امرا ثانويا عندما يتعلق الأمر بالعلوم الإسلامية ، فهذه العلوم الشريفة تطلب لهدف أسمى من اجتياز الامتحان ، وهو العلم بالاسلام والتشرف بمعرفته ، والعمل بمقتضى هذه المعرفة وثالثا - بأن يعتبر الفصل الدراسي مكانا واحدا من أماكن عديدة للتحصيل العلمي ويضع نفسه في أجواء العلم داخل الفصل وخارجه ، ويبقى على صلة بمصادر العلم وأهله وأماكنه ، وتكون له مكتبة خاصة ينميها بالكتب المتنوعة ، اضافة إلى المكتبات العامة التي يتردد عليها ويتعرف إلى فهارسها وكتبها .

إن وسائل العلم كثيرة منها المحاضرات والندوات والدروس ، ومجالس العلماء والمطالعة الشخصية والمطالعة الجماعية ، وسماع الاشرطة المسجلة ، وغيرها وطالب العلم يجب ان يجعل العلم هواء يتنفس فيه ، او محرابا يتعبد فيه ، يتنقل بين هذه الوسائل دفعا للملل واغتناما لساعات اليوم . وبهذا وحده يتقدم في علمه ، وتتحسن معارفه ومداركه .

لقد قيل : العلم رحم بين أهله ، ولا يكون المرء من أهل العلم حتى يصل هذه الرحم بدون انقطاع، فاذا احتاج هذا العلم الى وقت بذله ، واذا احتاج إلى مال أنفقه ، واذا احتاج إلى سفر أمضاه ، ومن طلب العلم براحة الجسد فانما يمني نفسه بالمحال :

لو ينال العلم من الرقاد   لناله الهر من الرماد

لقد كان طلاب العلم يرحلون للتلقي عن الشيوخ الكبار ، ولا يكتفون بالشيخ الواحد ، ولم تكن صعوبة السفر تحول دون الرحلة ، كما كانوا يأخذون أمر التحصيل بجد ، حفظا ومدارسة ومذاكرة :

من طلب العلم وذاكره   صلُحَت دنياه وآخرتُه

فأدمِ للعلم مذاكرةً فحياةُ العلم مذاكرتُه
واسهر بالليل ونَاظِرْه لتَعُمُّك حقا نَافِحَتُه

ثالثا - ان العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليس له حد اذا بلغه طالب العلم اكتفى وتوقف عن التحصيل فينبغي أن يستمر طالب العلم في طلبه الى الممات لأنه عبادة والله تعالى يقول : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (الحجر/آية ٩٩) .

ومن الذي يزعم أنه أحاط بالكتاب والسنة حتى يسقط عنه فرض التعلم فما دامت الحياة يحسن بالمسلم أن يتعلم ، وقد سئل عبد الله بن المبارك : لو أن الله أوصى إليك : تموت العشية ، فماذا تصنع اليوم ؟ قال : أقوم وأطلب العلم. وقيل لأبي عمرو بن العلاء : متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دامت الحياة . يحسن أن يتعلم ، وقد جاء عن بعض أهل العلم أنهم استمروا في مذاكرة العلم ومسائله حتى فارقوا الحياة ، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة .

فإذا قدر المسلم علي تجاوز القدر الواجب من العلم ، ومواصلة الطلب حتى يصير من العلماء الراسخين فهذا أحسن ، قال النضر بن شميل :

من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم ، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق في دين الله ويكون بين الله وبين عباده .

وقال سهل التستري :

« من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، يجيء الرجل فيسأل : ما تقول يافلان في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طلقت امرأته ويجيء آخر فيقول : حلفت بكذا وكذا ، فيقول : ليس يحنث بهذا القول ، وليس هذا إلا لنبي أو عالم فاعرفوا لهم ذلك .

وقال سفيان بن عيينة :

« أرفع الناس منزلة عند الله ، من كان بين الله وبين عباده ، وهم الأنبياء والعلماء .

وقال حمزة بن سعيد المصري :

« لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث ، قال لابنه : كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا ، قال : ثلاثمئة دينار ، قال : فرقها على أصحاب الحديث والفقراء ، شكرا لله ، ان أباك اليوم شهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت شهادته . . (٣٦)

يقول الإمام الشوكاني (٣٧) .

« فاحرص أيها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الأولى ، فإنك إذا ترقيت من البداية التصورية ، إلى العلة الغائية التي هي أول الفكر وآخر العمل، كنت فرد العالم ، وواحد الدهر ، وقريع الناس ، وفخر العصر ، ورئيس القرن ، وأي شرف يسامي شرفك ، أو فخر يداني فخرك ، وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله ، ولا تقلد في ذلك أحدا ، ولا تقتدي بقول رجل ، ولا تقف عند رأي ، ولا تخضع لغير الدليل ، ولا تعول على غير النقد ، هذه والله رتبة تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم ، فكيف بك إذا كنت مع هذه المزية مرجعا في دين الله ، ملجأ لعباد الله مترجما لكتاب الله وسنة رسول الله ، يدوم لك الأجر يستمر لك النفع ، ويعود لك الخير وانت بين أطباق الثرى ، وفي عداد الموتى ، بعد مئين من السنين، ولا يحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ما تنازعك نفسك اليه من مطالب الدنيا التي تروقها وتود الظفر بها ، فإنها حاصلة لك على الوجه الذي تحب ، والسبيل الذي تريد ، بعد تحصيلك لما أرشدتك إليه من الرتب العلمية ، وتكون إذ ذاك مخطوبا لا خاطبا ومطلوبا لا طالبا ... »

فمن كان قادرا أن يكمل المسير حتى يدرك هذه المرتبة ، وينتسب لهذه الطبقة ، فلا تقعدن به همته عنها ، ومن لا يستطيع أو لم تسعفه ظروفه فحسبه ان يتعلم ما به ينجو يوم الحساب ، قال علي بن ابي طالب : « الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » (٢٨

فليسأل كل مسلم نفسه : ماذا أدى من حقوق القرآن عليه وماذا أدى من حقوق السنة ؟ وما نصيبه من علومهما ؟

فمن بدأ فليتم ومن لم يبدأ ماذا ينتظر ، فكن عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك .

خاتمة

سيبقى ما كتبناه في الفصول السابقة حبيس هذه الصفحات ما لم يكن هناك حافز قوي للعمل والتطبيق .

ولا يوجد دواء سحري يعالج ضعف الهمة ، وخور العزيمة ، وينشئ هذا الحافز في النفس ، غير أن الكتب التي اهتمت بموضوع العلم اعتادت أن تسرد ما ورد في فضل العلم وأهله للتشجيع عليه ، وهذا أليق شيء بهذه الخاتمة ، عسى أن نقرن قراءتها بتجديد العزم على طلب العلم ، وتحصيله ، وأول ما نبدأ به ، هذا الأمر الالهي العام الذي قال الله فيه :

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » (النحل/آية ٤٣) .

وأهل الذكر هم أهل العلم ، ومنهم أموات وأحياء ، فسؤال الأموات بقراءة كتبهم ، وسؤال الأحياء بسؤالهم واستفتائهم وحضور مجالسهم وقراءة مصنفاتهم .

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم أحد الطرق الموصلة إلى الجنة فقال :

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سلك الله به طريقا إلى الجنة » (٣٩)

أما تعليمه ونشره فقد عد صلى الله عليه وسلم ذلك من العمل الذي يبقى للمرء بعد موته :

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله ، إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٤٠)

ومعلوم أن تعليم العلم لا يكون إلا بعد تعلمه ، فمن كان حريصا على فضل التعليم فليتعلم أولا ، ففي الحكمة المأثورة : عَلّم علمَكَ مَن يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما تجهل ، وحفظت ما علمت .

وفي التصدر للتعليم قبل استكمال شروطه آفات أخطرها الكلام في الدين بغير علم ، وما يتبع ذلك من إضلال الناس عن الهدى وحمل أوزارهم ، كما قال تعالى « ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ،الا ساء ما يزرون» (النحل/آية ٢٥)

ومما يذكره التاريخ عن حرص المسلمين على تعلم العلم ، ونشره ، وبناء جامعاته ومراكزه ، هذه الأمثلة المتفرقة :

« يذكر ابن البر في جامع بيان العلم وفضله : أن جابر بن عبد الله الأنصاري سمع أن عبد الله بن أنيس الجهني سمع حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيرا وشد رحله حتى قدم مصر على عبد الله فسمع الحديث منه .

« ويذكر ابن خلكان ان يحيى بن يحيى الليثي نشأ في قرطبة ، ورحل إلى المشرق وعمره ثمانية وعشرون عاما ، فسمع من مالك الموطأ في المدينة ورحل إلى مكة ، فسمع من سفيان بن عيينة ، ورحل إلى مصر فسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمان بن القاسم ، ثم عاد إلى الأندلس .

« ويذكر عن أبي الاعرابي ، - وكان لغويا مشهورا بالكوفة في القرن الثاني الهجري - ، أنه رأى في مجلسه يوما رجلين يتحدثان فقال لأحدهما : من أين أنت ؟ قال : من اسبيجاب ، وقال للآخر من أين أنت فقال : من الأندلس ، فعجب لذلك ، واسبيجاب مدينة من اقصى بلاد المشرق من اقليم الصين أو قريبا منه .

« وهذا أبو زكريا ابن الخطيب التبريزي استاذ الأدب بالكلية النظامية ببغداد حصلت له نسخة من كتاب التهذيب في اللغة تأليف أبي منصور الأزهري فأراد تحقيقها على الشاعر أبي العلاء المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز بفارس إلى المعرة بالشام، ولم يكن معه ما يمكنه من استئجار دابة يركبها فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها البلل، قال ياقوت : وهذه النسخة في بعض المكاتب الموقوفة ببغداد إذا رآها من لا يعرف خبرها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب » (٤١)

« وعن ابن أبي حاتم قال : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة ، نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونقابل ، فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا ، فقالوا : هو عليل ، فرأيت سمكة اعجبتنا ، فاشتريناها ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا فلم يزل لحم السمكة ثلاثة أيام ، وكاد أن ينضى فأكلناه نيئا ، لم نتفرغ لشيه ، ثم قال : لا يستطاع العلم براحة الجسد » (٤٢)

وابن ابي حاتم هذا أبو محمد عبد الرحمان الحافظ الكبير صاحب الجرح والتعديل توفي سنة ٣٢٧هـ .

« وأرسل بعض الخلفاء في طلب بعض العلماء ليسامره ، فلما جاء الخادم إليه وجده جالسا وحواليه كتب ، وهو يطالع فيها فقال له : إن أمير المؤمنين يستدعيك ، فقال العالم : قل له : عندي قوم من الحكماء أحادثهم ، فإذا فرغت منهم حضرت ، فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك ، غضب الخليفة وقال له : ويحك ، من هؤلاء الذين كانوا عنده ؟ فقال الخادم : والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد ، قال الخليفة : ويكذب أيضا ؟ فأحضره الساعة كيف كان ، فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء

الذين كانوا عندك ؟ قال : يا أمير المؤمنين :

هُمُ جُلساء ما تَملُّ حديثهم أمينون مأمونون غَيبا ومَشهدا
إذا ما خلونا كان خيرُ حديثهم مُعينا على نفي الهموم مؤيّدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وعقلا وتأديبا ورأيا وسؤددا
فلا ريبةٌ تخشى ولا سوءُ عِشرة ولاتتّقي منهم لسانا ولايدا
فإن قلت : أمواتٌ فلستَ بكاذب وإن قلتَ أحياءٌ فلست مُفَندا .

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب ، ولم ينكر عليه تأخره (٤٣)

وقد كانت العلاقة بين الطلاب والأساتذة علاقة أبوة روحية ، فكان الطالب لا يرد لاستاذه امرا ، وكان الأستاذ لايألو جهدا في النصح للطالب والسعي في مصلحته .

« يذكر أن البخاري رحمه الله كان بدأ بكتاب الصلاة من الفقه على محمد بن الحسن ، فقال له محمد : اذهب وتعلم علم الحديث لما رأي ان ذلك العلم أليق بطبعه فعمل بوصية أستاذه ، فصار أمير المؤمنين في الحديث (٤٤)

وقال الشافعي : كنت أقلب الورق بين يدي مالك تقليبا رفيقا هيبة أن يسمع وقعه .

وقال الربيع : والله ما اجترأت ان أشرب الماء والشافعي ينظر الى هيبة منه .

ولقد أورثهم الاخلاص في طلب العلم ، والحرص والجد في تحصيله ذكاء خارقا وحافظة عجيبة :

ذكر المؤرخون في ترجمة الامام البخاري انه لما دخل بغداد أراد اصحاب الحديث فيها أن يمتحنوه ليعرفوا مدى ما عليه من الحفظ والدراية فعمدوا إلى مئة حديث فقلبوا متونها واسانيدها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إليه عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث ،

وأمروهم أن يلقوا ذلك على البخاري ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث ، فقال البخاري : لاأعرفه ، فلما علم البخاري انهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال : اما حديثك الاول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا ... حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن الى اسناده ، وكل اسناد الى متنه [٤٥] »

وكان ابن تيمية يحفظ نصوصا مطولة من كتب مختلفة ، وكان يثبتها من حفظه ، وعند المقابلة والتحقيق وجدت كما هي في أصولها . أما معرفته بالحديث وسعة اطلاعه عليه فقد لخصته العبارة القائلة بأن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

وكان الامام ابن القيم يستظهر المسند ، وألف كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد وهو على سفر ليست معه كتبه ومراجعه .

وكان أبو بكر الانباري المتوفى سنة ٣٢٧هـ يحفظ ثلاثمئةألف بيت من الشعر ، وكان لايملي إلا من حفظه ، ولما مرض انزعج عليه أبوه انزعاجا عظيما فطيبوا نفسه فقال : كيف لاانزعج وهو يحفظ جميع ما ترون ، وأشار إلى خزانة مملوءة كتبا » .

أما من حفظ القرآن الكريم في ست سنين وسبع سنين ، ومن حفظه في أقل من عام فكثيرون.

ولاشك أن للاخلاص في طلب هذه العلوم الشريفة في هذا النبوغ ، والله سبحانه قادر أن يمنح الاجيال اللاحقة من العون والتسديد ما منح هؤلاء السلف إذا عملت مثل عملهم ، وسيكون ذلك هو الطريق ليصلح آخر هذه الأمة بما صلح بها أولها .

الهوامش

(١) اخرجه الشيخان

(٢) انظر كتاب : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لابن عبد البر وانظر أبواب العلم في كتب السنة ، وانظر مفتاح دار السعادة لابن القيم .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ٢١٣ دار الكتب العلمية (باختصار)

(٤) رواه البخاري ومسلم

رواه مسلم وأبوداود والترمذي

(٦) اخرجه البخاري ومسلم

(٧) اخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان

(٨) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة في الوجه العاشر بعد المائة من وجوه بيان فضل العلم وقال : « هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم في المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولايثبت ، وحسبه ان يصل إلى معاذ » انظر ص / ١٣ .

(٩) نفس المرجع ص : ١٣٣

(١٠) نفس المرجع ص ٦٦

(١١) نفس المرجع ص ٣٠/

(١٢) نفس المرجع ص ٨٢ /

(١٣) رواه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي وابن ماجة .

(١٤) رواه البخاري ومسلم .

(١٥) رواه الترمذي

(١٦) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

(١٧) لابن القيم : مفتاح دار السعادة ص / ١٨

(١٨) نفس المرجع ص ١٨٢

(١٩) نفس المرجع والصفحة

(٢٠) طلب العلم وطبقات المتعلمين أو ادب الطلب ومنتهى الادب ص 21 دار الارقم

(٢١) نفس المرجع ص ٢٢

(٢٢) نفس المرجع ص ١٤

(٢٣) ص :

(٢٤) المقدمة ج ٣ ص ١٠٢١ تحقيق علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر الفجالة القاهرة

(٢٥) بدر الدين بن جماعة ، تذكره السامع والمتكلم بادب العالم والمتعلم ص ٣١ دار الكتب العلمية

(٢٦) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ١٥٨ نقلا عن كتاب « الاسلام بين العلماء والحكام » للشيخ عبد العزيز البدري ص ٢٢٠ المكتبة العلمية بالمدينة .

(٢٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ١٦٧ نقلا عن هوامش تذكرة السامع والمتكلم ص ١٩

(٢٨) المرجع السابق ص ١٧

(٢٩) رواه الترمذي عن ابي برزة الاسلمي وقال هذا حديث حسن صحيح

(٣٠) مفتاح دار السعادة ص ١٧٥

(٣١) لايمكن أن يبلغ طالب العلم المستوى الذي يمكنه من التعامل المستقل مع الكتاب الاسلامي إلا إذا كان على قدر جيد من المعرفة باللغة العربية ، وكان متمرسا بالقراءة . أي أن هذه المرحلة التي يشرع في قراءة الكتب الاسلامية يجب أن تسبقها مرحلة تكوين لغوي . وهذا يتحقق بصفة عامة اذا اجتاز الطالب التعليم الاساسي بمرحلتيه الابتدائية والاعدادية ، وفي نهاية هذه المرحلة يبدأ عادة التطلع إلى قراءة الكتب والاستزادة من العلم خارج المقررات الدراسية فمن اهتدى في هذه المرحلة - أو في مرحلة قبلها - إلى مثل هذه الكتب التي تعرفه بفضل العلم وتقترح عليه ما يقرأ ، ووجد من يوجهه للأحسن فانه يستفيد من هذه المرحلة من العمر على أحسن وجه .

(٣٢) ترجمة عمر فروخ ص ١٢ الطبعة التاسعة دار العلم للملايين ، ومحمد أسد صحفي نمساوي إسمه ليوبلد فايس عمل مراسلا لعدد من الصحف الاوربية في العالم الاسلامي فاحتك بالمسلمين ودرس الاسلام ثم اعتنقه ، وكتب كتابه الاسلام على مفترق الطرق .

(٣٣) كيف تكتب بحثا أو رسالة ص ٧٠-٧١ مكتبة النهضة المصرية الطبعة ١٨ سنة

(٣٤) تذكرة السامع والمتكلم بادب العالم والمتعلم ص ٧٢ بتصرف دار الكتب العلمية لبنان

(٣٥) جاء في المرجع السابق « ولابأس بمعاناة المشي ورياضة البدن » ص ٨٠

وقال المعلق عليه في هامش هذه الصفحة :

« لما كان العلماء والطلبة كثيري الاسفار في الازمنة القديمة ، وأكثر رحلاتهم كان على الاقدام حتى كانوا يمشون آلاف الفراسخ من بلد إلى بلد في طلب العلم ، فما دعتهم حاجتهم الى الرياضة البدنية مثل احتياجنا إليها لاسيما في الأوقات التعليمية ومع ذلك كانت لهم اشغال ملية ، وفرائض دينية لم يألوا فيهاجهدا ، مثل الصلاة في المساجد ، وشد الرحال الى الحج ، والتهيؤ للجهاد والمشي خلف الجنائز ، وعيادة المرضى ، وشركة المجالس والمحافل ، وخدمة الأشياخ ومرافقة الاقران ،

والتودد للفرباء ، وأداء حقوق الجيران ، واسترضاء الأبوين ، فكفتهم هذه الخدمات الجليلة والفرائض العظيمة ، فصحت أجسامهم وطابت أعمارهم ونزهت أرواحهم حتى صاروا أغنياء عن الرياضة والمواظبة على المشي ، وبقينا مفتقرين الى الرياضة الحسية قاصرين عن ادراك المعاني الخفية .»

(٣٦) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ص / ١٨

(٣٧) طلب العلم وطبقات المتعلمين ص / ١٠

(٣٨) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ص / ١٣٤

(٣٩) رواه مسلم

(٤٠) رواه البخاري

(٤١) نقلنا هذه الأمثلة عن كتاب مبادئ التربية الاسلامية لاسماء حسن فهمي ص ١٢٥

(٤٢) تذكره السامع والمتكلم ص ٧٣ من تعليقات المحقق محمد هاشم الندوي نقلا عن تذكرة الذهبي ج ٣ ص ٤٧ .

(٤٣) احمد شلبي : التربية والتعليم في الفكر الاسلامي ص ١٤٤ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة ١٩٨٧ .

(٤٤) برهان الدين الارنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ص ٢١٠ مكتبة صبيح

(٤٥) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢-٢١ .

فهرس الكتاب